الفلاّح والبدويّ والمدينة في المشرق العربي

هرمان فون ڤيسمان

يعتبر المشرق ذلك الحيز من عالمنا القديم الواقع في قلب المنطقة الجافة التي تتعرض للرياح الشرقية الجنوبية والشرقية الشمالية. وقد تحول هذا العالم وفي غضون قرن واحد، وهو القرن الذي ابتدأ مع هجرة الرسول من مكة عام ٦٢٢م ومع بدء انتشار الإسلام إلى منطقة لم يزل الإسلام الديانة السائدة فيها. إذ لم ينحسر عنها بعد هذا التاريخ. يمتد المشرق من جهة الغرب عبر شمال إفريقيا ومصر باتجاه الجزيرة العربية وسوريا وما بين النهرين، إيران وطوران وحتى نهر جيحون. يطلق الفرنسيون على هذه المناطق إسم الشرق الأدنى، بمقابل إطلاق اسم الشرق الأقصى على المناطق التي تتعدى الهند ومناطق شرق آسيا. أما الأنكلوساكسون فيطلقون على الشرق الأقصى اسم (Far East) ويقسمون ما لا يتعدى الهند، وهو ما نطلق عليه اسم المشرق إلى شرق أوسط وشرق أدنى (Middle Eastو Near East). منذ الحرب العالمية الثانية وبفضل ظهور الاقتصاد القائم على صناعة النفط أصبح مفهوم الشرق الأوسط مفهوماً أكثر اتساعاً، إذ امتد ليشمل كافة المنطقة المحيطة بالبحر المتوسط. أما فيما يخصني شخصياً فإني ما زلت أفضل الاستخدام الألماني، معتبراً بذلك الهند وشرق آسيا والمناطق الآسيوية الأخرى التي عرفت حضارات قديمة خارج المشرق بالمعنى الحصري لهذه الكلمة.

يعود السبب في جفاف القسم الأكبر من منطقة الحزام الممتد من الصحراء الجزائرية وحتى الجبال في المرتفعات الآسيوية إلى هبوب الرياح الجافة الشمالية، والشمالية

(*) عن: Rudi Paret (ed.), Die Welt des Islam und die Gegenwart. Stuttgart 1962. وترجم مقال فون ـ ڤيسمان الوارد في الكتاب د. جورج كتوره.

الشرقية. وتمتد هذه المنطقة من أقدام الجبال: من الأطلس ومن الحزام الجبلي الممتد من آسيا الصغرى عبر إيران وهندكوش والبامير، ومن الجبال التي تمتد من سوريا ولبنان باتجاه جنوب غرب الجزيرة العربية (اليمن) وما يقابلها من سلسلة جبال الحبشة. وفي هذا الحزام الجبلي نجد شتى المعابر التي تفصل بين الصحراء الخالصة والوديان والمستنقعات والواحات التي يكسوها العشب والحشيش والشجيرات عند أقدام الجبال وصولاً إلى الغابات التي تتفجر فيها الينابيع والواقعة في هذه الجبال بالذات والتي، وبفضل ما يتساقط بينها من أمطار إبان فصل الشتاء، ومن ثلوج، فإنها لا يمكن أن تُحسب من المناطق التي تمتاز بمناخ قاري. ومع ذلك فإن المقارنة بين ما نجد من غابات على المرتفعات الجبلية بما يحيطها من صحراء ومن واحات صحراوية وواحات عند أقدام الجبال، لا تظهر وجودَ غير خطوط ضيقة. إنها بمثابة جزرٍ وسط أرضٍ جافة، فهي جد متفرقة أو هي مما يحيط بالسواحل البحرية. ثمة ثلاثة أنظمة من المجاري المائية، تمتد من حدود المشرق أو من خارج حدوده وهي تبدأ من الجبال الغنية بأمطارها وتمتد عبر الواحات والصحراء باتجاه البحر: إنها النيل، والنهران اللذان يجريان في بلاد الرافدين و(نهر) جيحون[٢]. إنها تشكل أكبر الواحات الطبيعية وسط الأراضي الصحراوية وحتى قبل أن يبدأ الإنسان عمارتها.

ثمة بحار دافئة غنية بأسماكها تحيط بالمشرق وتشكله، بحيث تتجاور الأرض الصحراوية مع «صحراء من المياه». وما بينها نجد مناطق جبلية خضراء، أو واحات خضراء تمتد على شواطىء البحار. ثمة مساحات أرضية عظيمة وعريضة تفصل ما بين البحار. وخلف الصحراء الساحلية في الخليج الفارسي وعلى البحر الأحمر تنتصب المرتفعات الجبلية المأهولة. وهذان البحران يوصلان إلى الجزر الساحلية في المحيط الهندي وإلى المناطق المدارية الرطبة في الهند وفي شرق إفريقيا. كما أنَّ البحر الأحمر يكاد يلامس دلتا النيل، ومنعطف الفرات يكاد يلامس بدوره البحر المتوسط. ثم إنَّ هذا البحر الذي يتوسط البلدان، يمتد إلى الجزر وإلى المرافىء الآمنة في اليونان، كما أنه

(١) K.W. Butzer, Quaternary Stratigraphy and Climate in the Near East. Bonner Geogr. Abh. 24, 1958; ders., Die Naturlandschaf Agyptens während der Vorgeschichte und der dynastischen Zeit. Akad. Wiss. Mainz, Abh. math.-nat. Kl. 1959, Nr. 2; ders., Environment and Human Ecology in Egypt during Predynastic and Early Dynastic Times. Bull. Soc. Géogr. Égypte 32. 1959, 43 - 87.

(٢) حيث نجد عند أقدام الجبال نهراً يصب باستمرار وسط الأرض الجافة المقابلة، نجد أيضاً عند طرفه الأعلى منشآت تسهل توزيع أقنية الري في المناطق الأدنى.

يوصلنا إلى روما ومن ثم إلى غابات أوروبا. تقع أبواب أوروبا الباردة على تخوم منطقة حدودية طويلة فمن أسبانيا، من مناطق غرب المتوسط، ومن مناطق شرق المتوسط عبر آسيا الصغرى والقوقاز وصولاً إلى الدون والفولغا.

تعيش المستنقعات الجافة والبلاد المنخفضة في المشرق صيفاً حاراً وطويلاً سواء إلى الشمال في طوران أو في المرتفعات الجبلية الإيرانية. وحيث تتوفر المياه، مياه الأنهار المتحدرة من الجبال أو من العيون والينابيع، وحيث تكون هذه المياه نقية غير مالحة، فبالإمكان عندئذٍ استخدامها لري المزروعات الكثيرة والعظيمة التي يمكن استنباتها حتى في قلب الصحراء، وذلك على مدار السنة تقريباً أو في أوقات طويلة منها. تسمح التربة السريعة التفتت والغنية أصلاً بنباتات برية عشبية وشوكية والغنية بحشائشها وهذا ما نجده في البوادي، بل تسمح الصحراء وهي الخصبة بأراضيها بسهولة تحويلها إلى أراضي زراعية. ولا حاجة في هذه الحالة إلا لأدوات بسيطة بدائية يمكن بواسطتها إعادة عمارتها. وفي البوادي بالإمكان الحصول على محاصيل غنية بمجرد هطول أمطار موسمية مبكرة. ولا حاجة عندها للري اطلاقاً.

أما خارج المشرق فالمناطق الجافة هي تلك الواقعة إلى الشمال من طوران. الصيف هنا قصير، أما الواحات فقليلة. تعتبر هذه المناطق الواقعة شمال شرق المناطق الجافة والباردة شتاءً ما بين جنوب روسيا غرباً ومنغوليا شرقاً وما فيها من بوادي حيث تنعدم الواحات إذ لا منفعة كبرى من إقامتها، تعتبر مهد البدو والخيالة، الذين لم يتهددوا الصين وأوروبا والهند وحسب، بل شرق المشرق أيضاً. حيث كانوا على الدوام مصدر إزعاج وويلات لسكان هذه المناطق. وليس بإمكاننا أن نحسب هذه المنطقة الواقعة إلى الشمال، الجافة القليلة الواحات والباردة شتاءً جزءًا من المشرق، كذلك يحيط بالمشرق حزام صحراوي؛ إنه حزام جاف جداً إلى حد أنَّ الجبال العالية فيه مثل اهاجار وتيبستي تبقى معدومة الأمطار من واحات فيها إلا ما نجده من بوادٍ قليلة تمتاز بنباتها الصحراوي الشوكي. أما الطرف الواقع بين الصحراء والسودان فهو منطقة واحات شبيهة بما نجده في المشرق. كما أنه يقع في محيط المناطق الإفريقية الغنية بسكانها وبغاباتها وبمراعي السافانا فيها. ثم إنه على حدود هذه المناطق بالذات وذلك رغم الجسر الذي يتوفر بوجود وادي النيل والبحر الأحمر وبلاد الحبشة. أما مستنقع تاريم مع ما فيه من سلسلة من الواحات والذي يعتبر جافاً بالنسبة للبدو فإنه يفصل ويربط في آن واحد بين المشرق وبين الصين. وهكذا يقع المشرق بين أوروبا وبين البوادي الآسيوية الداخلية في

الشمال وبين السودان والصحراء في الجنوب أما إلى الشرق فحدوده الهند والمرتفعات الآسيوية.

يعتبر المشرق أرضاً صحراوية: ومع ذلك فإننا نجد فيه غابات جبلية هي بمثابة جزرٍ تحيطها البوادي. وهي غابات تكثر فيها الينابيع وتوصل المياه إلى الواحات الواقعة في قلب الصحراء وفي المناطق المنخفضة المعروفة بطول فصل الصيف فيها. أما البحار الدافئة الغنية بأسماكها وما يصلها من مجاري مياه، فهي توصل البحارة على شواطئه إلى البلدان المدارية الغنية بالغابات في جنوب شرقه وإلى البلدان الباردة المكسوة بالغابات أيضاً في شمال شرقه: هكذا يتوسط المشرق ما بين الهند وأفريقيا من جهة وبين أوروبا من جهة أخرى. أما جانبه الشمال الشرقي فبادية شمالية لا واحات فيها. وما بينها وبين مرتفعات آسيا نجد حزاماً ضيقاً من الواحات، مما يفصل بين المشرق وبين أقاصي الصين.

لم يتعرض المشرق، كما يسود الاعتقاد إلى جفاف مفاجىء. بل إنّ الجفاف استمر مطرداً منذ نهاية العصر الجليدي الأخير. فمنذ الحقبة المتأخرة من العصر الجليدي الأخير (٦٠٠٠ قبل الميلاد؟) وحتى الألف الخامس قبل الميلاد أيضاً كان المناخ في أرجاء المناطق الواقعة على المتوسط وفي شمال الصحراء على ما يبدو جافاً كما هو الآن أو أشد جفافاً ربما، وربما عرف أيضاً مرحلة قصيرة كان المناخ فيها رطباً إلى حد ما. إنها مرحلة يمكن تحديدها بحدود الألف التاسع قبل الميلاد. ثمة مهلة أخرى كانت رطبة أو أشد رطوبة مما هو حاصل الآن وقد استمرت كما يعتقد ك. بوتزر من الألف الخامس حتى حوالى ٢٣٠٠ ق.م. أما التقلبات من حيث معدلات سقوط الأمطار منذ ذلك العصر وحتى أيامنا هذه فهي جد طفيفة. بل هي أضعف مما أشير إليه. وإذا ما استندنا إلى بوتزر، فالتقلبات هذه قد حصلت كما أشرنا بين الألف الخامس وبين العام ٢٣٠٠ ق.م فما بين بلاد النوبة والصحراء، باستثناء الجبال، كانت هذه المناطق آنذاك صحراء كاملة: أما الهضاب ووادي النيل فقد كانت لا سيما في الشرق منطقة شبه صحراوية ولم تكن صحراوية بالكامل؛ وعلى المتوسط وما بين برقة ومصر، فإننا نجد حزاماً من البوادي يمتد بامتداد الأرض التي أشرنا إليها. أما حركة التشجير فلا بد أنها بدأت قبل العصر الذي ابتدأ فيه زمن الرعي الكثيف، وزمن تربية القطعان الكبيرة لا سيما الماعز والجمال. حيث كانت كميات المياه المتساقطة أعلى نسبياً مما هي عليه الآن وحيث استمر المناخ ولآلاف السنين مناخاً شبه صحراوي، أو صحراوياً (وإن ليس إلى الحد الأقصى). يعتبر الجمل كما تعتبر الماعز مسئولين كلياً عن الشح الحاصل في المراعي وعن عدم استمرار النبات

الصحراوي، أو شبه الصحراوي. وللأسف الشديد لم تظهر إلى الآن أية دراسة تراعي العلاقة بين ما نشهده في الصحارى الأميركية وما نعرفه عن الصحاري العالمية القديمة.

يمتاز المشرق بطابع حياتي مميز، إذ إنّ أشكال الحياة الاجتماعية لم تتبدل فيه كثيراً. والتقسيم المعروف يشمل مراعاة وجود أنماط ثلاثة من الاجتماع: الحياة البدوية، والحياة الريفية ـ الزراعية والحياة المدينية. وهو تقسيم نشأ منذ ما يقرب الألفي عام وما زال مستمراً.

يخضع هذا التقسيم حالياً لتحولات انقلابية. إذْ يتأثر بالمؤثرات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية التي استطاعت تغيير وجه أوروبا منذ بدء النهضة وبوتيرة متسارعة مما أدى هنالك في نهاية الأمر إلى إحداث انقلاب ساعد على تصعيد وتيرة العلم التحليلي وما انبنى عليه من معرفة تقنية وحتى اكتساب وسائل القوة، وقد ترتب على ذلك حدوث انقسامات ولا مساواة وابتعاد عن الجهالة التي لا جذور لها. يعتبر ذلك الآن من مكتسبات الغرب التي ألقت بتأثيرها على الحضارات القديمة في بلدان المشرق وفي بلدان آسيا سواء مرت هذه البلدان بمرحلة استعمارية أم لم تمر، وقد كان التأثير أقل إحداثاً للانقسام والاهتزازات مما كان بالنسبة للشعوب التي عرفت مستوىً حضارياً أكثر تدنياً.

ظهرت أشكال الحياة الثلاثة المشار إليها في المشرق، وهي البداوة والحياة الفلاحية والمدينية في ظل المعطيات الطبيعية الخاصة بها. إننا نجد في المشرق أصل هذا التقسيم الثلاثي. فنحن نجد هنا ما نعرفه من قطعان ومن حيوانات الصيد، والأشكال الأولى من الماعز والأغنام والأبقار، كما نجد الأصل الأول للحبوب والمحاصيل الزراعية الجمعية كالذرة. لقد ظهرت هذه الحيوانات والمزروعات ما بين البامير وبين المناطق الشرقية من المتوسط، على الجبال وفي البوادي، وقد كانت بين أيدي الفلاحين المتنقلين في بداية فترة التحول إلى الزراعة؟ بكل الأحوال إننا نجد هنا وعند أطراف الجبال الحدود الفاصلة بين منطقة رطبة صالحة للزراعة وهي من المراعي الجيدة، كما تساعد المنطقة على ظهور الحياة الزراعية وإن المرتحلة، وبين البوادي المشجرة والبوادي الجافة، التي لا تصلح إلا لتكون من المراعي الثانوية. لا بد أن ذلك قد شكل على الدوام إغراءً جعل الرعاة يفكرون بالاستقلالية، وهذا ما أدى لانفصال الحياة البدوية الخالصة عن الزراعة النقالة، كذلك أسهمت الواحات الغنية بمياهها وينابيعها الواقعة عند أقدام الجبال (مثل دمشق وجرش) أو الواحات الأخرى الكبيرة الواقعة عند ضفاف الأنهار الغزيرة والضخمة ـ إلى تنظيم الحياة وجعلها جماعية إنْ في العمل أو من حيث تأدية

الجبال كانوا من الصيادين الذين لم يمارسوا آنذاك أية زراعة، فهي فكرة تبدو أقل إقناعاً. ربما أدى الاحتكاك بين المزارعين وبين صيادي الجبال إلى «تطاير الشرر» مما استدعى قيام شكل حياةٍ جديد. ومن هذين النمطين، تربية القطعان الصغيرة والفلاحة النقالة، ظهر على الأرجح وفي هذه البلاد حيث تتجاور المجاري الجليدية والمراعي والغابات والبوادي والصحاري والواحات الطبيعية في أودية الأقاليم(١)؛ ظهر نوع زراعة جديدة: فلاحة البوادي وفلاحة الغابات والسهوب، والتي سرعان ما انتشرت لتشمل المناطق الجافة في العالم القديم.

لم تسعفنا الحفريات بعد في معرفة المزيد عما قبل العصر الخزفي النيوليتي في الشرق الأوسط، يخيل إلي أنّه علينا أن نربط بين هذا التحديد وبين فترة ازدهار تربية الماشية وبدء الزراعة النقالة. وتبعاً للحفريات الأثرية، فإنه بإمكاننا أن نحسب الفترة ما بين الألفين السابع والسادس قبل الميلاد كما يستدل من الحفريات التي جرت في جرش. ففي هذا العصر الخزفي المبكر يبدو مؤكداً أن تربية الحيوانات الصغيرة (الماعز على الأرجح) كانت قد ابتدأت: أما الحفريات فإنها لم تؤكد بعد انتشار زراعة الحبوب أو الزراعات الحشيشية. وإذا ما تتبعنا الحفريات التي أضاءت هذا الجانب والتي قامت بها ك.م. كينيون عام ١٩٥٩ في جرش، فإن علينا أن نعتبر تبعاً لما اكتشف من أماكن صناعة الخزف البدائية المكتشفة في الطبقات العليا من التربة، أنّ هذه المرحلة قد بدأت حوالي الألف الخامس. ففي جرمو (garmo) نجد آثاراً لزراعات فصلية وبخاصة للحبوب الكبيرة كبعض أنواع الشعير.

أما الأشكال الأولية فقد سجل وجود موطنها الأصلي في بلدان المشرق. إذ نجد الشكل الأصلي للقمح في فلسطين وامتداداً حتى الهضاب الجبلية عند زاغروس، وكذلك نجد فصائل من الشعير (ذي الصفين على السنبلة الواحدة) في أجزاء أخرى من بوادي المشرق البعيدة، وقد افترض هـ. هيلباك H. Helback أن مجرد وجود زراعة مختلفة للشعير، تختلف عن الشكل الأصلي للشعير ذي الصفين المكتشف في جرمو يعني مرور حقبة من الزمن تفصلنا عن الوقت الذي يُفترض فيه ابتداء هذه الزراعة، كذلك يبدو أن تربية الحيوانات الصغيرة قد ابتدأ أيضاً في جرمو، وربما ابتدأ هنا تدجين الثيران وتربيتها، تقع جرمو على مقربة من الحدود السفلية القريبة من البوادي المكسوة بالغابات، وقد انتشرت فيها بكل الأحوال الزراعات المطرية: أما ما نجده في مناطق

(١) Vgl. z. B.K. Wiche, Die Osterr. Karakorum-Exp., Mitt. Geogr. Ges Wien 100, 1958, 290 f.

جرش ذات المناخ الصحراوي وما أثبتته الحفريات الأردنية من مصدر منابع جبلية مثمرة ومن واحة زراعية، لا يمكن فهمه إلا بوجود نظام ري زراعي اصطناعي وبوجود زراعات حدائقية منتظمة بجدية[١].

لقد أظهرت الحمضيات التي أعقبت العصر الخزفي المبكر في جرش وجود أمور مدهشة. إذ أثبتت وجود بيوت سكنية مبنية من الطوب وهي ترقى إلى الألف السابع قبل الميلاد، تبلغ مساحة هذا الحي المكتشف حوالي الأربع هكتارات (٢٠٠×٢٠٠م٢) وقد أظهرت أيضاً أنّ هذا الحي كان محاطاً ببرج مبني من الحجارة. مما يعني أنّ السكان الذين اختاروا العيش في هذه الواحة قد قاموا أيضاً بإنجاز ما يتطلب من إجراءات الحماية من هجمات الخارج، وبخاصة ممن يرتبط بهم من فلاحي الجبال المقيمين في الجوار والذين كانوا يمارسون الصيد وتربية الحيوانات الصغيرة في البوادي. إن التمركز الذي تمتد جذوره حتى هذه الفترة كان يعني بالتأكيد إقامة نوع من السلطة، كما يعني إقامة مساحة من الأرض لها روابطها بالجوار، وكما يعني أيضاً وجود صراعات مسلحة ثم أخيراً إقامة علاقات تجارية مع المراكز المجاورة: وهذا يعني أيضاً إذا ما تفكرنا بوجود بناء

(١) تختلف التقديرات بشأن الوقت الذي تم فيه السكن في جرش والراجح أنّ ذلك حصل ما بين ٩٢٤٠ و٥٤٧٠ ق.م. وكانت المنطقة مأهولة لما يزيد على قرن من الزمن. كما تختلف التقديرات أيضاً بشأن دخول نبتة الشعير ذات الصفين على السنبلة الواحدة أو المتعددة الصفوف. ولا تفسير نهائي لذلك بعد. إذ لا يعقل أن يكون التحول قد حدث صدفة أو أن يكون قد حدث بمجرد الانتقال من دائرة مناخية إلى أخرى. أو بمجرد ادخال طرق الري الصناعي علماً أننا نجد في الجبال الشعير ذي الصفين فقط. ولذلك لا يستبعد أن يكون ذلك قد حصل بفضل هجرة معينة من مناطق الشرق. إذ حمل المهاجرون معهم أصول هذه النبتة. كما لا يستبعد استقدامها من مناطق الهند؛ قارن:

(K.M. Kenyon, Some Observations on the Beginnings of Settlement in the Near East. Journ. Anthropol. Inst. Fr. Brit. and Ireland 89, 1959, 35-43; F. E. Zeuner, The Goasts of Early Jericho. Palest. Explor. Quarterly Apr. 1955; Braidnood and Reed a.a. O.; R.J. Braidnood, Near Eastern Prehistory. Science 127, 1958, 1419-1430, insb. Anm. 40; H. Helbaek, Domestication of Food Plants in the Old World. Science 130, 1959, 365-372; G. Smolla a.a.O.; 1960; K.M. Kenyon, Archaeology in the Holy Land, London 1960), (Gegen Wißmann 1957 steht Heblaek a.a.O.; ders., Ecological Effects of Irrigation in Ancient Mesopotamia, Irak 22, London 1960; N. Nybom in: Acta Agrar. Scand. 4, 1954, 430; D. Zohary, Is Hordeum agriocrithon the Ancestor of 6-row Barley? Evolution 13, 1959; ders. in Bull. Res. Council Israel 9 D. 1. 1960), (V. Christian (Die Herkunft der Sumerer, Sitzber. Akad., phil.-hist. Kl., 236. Bd., Abh., Wien 1961) eine Einwanderung der (Proto-) Sumerer von Indien her über See an. Vgl. zu diesen Fragen H.v. Wißmann a.a.O., Erdkunde 1957, 81-94, 175-193).

يشبه المعبد، وجود أصل لما يعرف بالمدينة ـ الدولة[١] (حتى لو كان الشكل تيوقراطياً آنذاك).

كانت تربية الأبقار بشكلها البدائي الأول تحولاً لمسار جدٍّ غريب، لا يمكننا فهمه إلا عبر ربطه بالتطورات وبالشعائر الدينية. هنا علينا أن نستعيد جزءًا من أعمال أدوارد هاهن لما لها من وقع مقبول. إن تربية الأبقار لا يمكن أن تحصل إلا من قبل أناس بدأوا اعتماد الزراعة سبيلاً لحياتهم. حيث تبدأ الخطوات لإقامة زراعة الحبوب القصلية مما يسهل إقامة اقتصاد يعتمد التخزين وحيث تظهر تربية الأبقار، بإمكاننا التحدث عن وجود دورة حياة زراعية كاملة. كذلك علينا أنْ نفترض أنَّ هذه الحياة الفلاحية الكاملة كانت تعني ومنذ البداية الانفصال عن نمط الزراعة التي ظهرت في البوادي الخالصة أو البوادي المكسوة بالغابات أو عن الزراعة المعروفة في الواحات. عرفت هذه الزراعة المتكاملة في البوادي وانطلاقاً من المشرق انتشاراً سريعاً عبر البوادي وعبر بوادي الغابات في آسيا باتجاه حقول السافانا في الهند وباتجاه إفريقيا، وعبر شبه جزيرة البلقان وصلت إلى أواسط أوروبا. أصبح هذا الانتقال أكثر سهولة خلال التحوّل المناخي إلى رطب عبر الصحراء وصولاً إلى أوساط المشرق. وفي الوقت نفسه تحول المناخ في أوروبا إلى مناخ أكثر دفئاً. وعبر سلسلة الواحات في أواسط آسيا انتقل هذا النمط الفلاحي الذي يعتمد الثيران حوالي الألف الثاني قبل الميلاد إلى شمال الصين، والأرجح أنَّ هذه الموجة قد حصلت قبل هذه الفترة بقرون قليلة، مما جعل شروط الزراعة أكثر تكاملاً (راجع الهامش، رقم ٥. راجع أيضاً Kussnatt ١٩٥٢/٥٣.

غالباً ما ينفصل راعي البوادي والواحات عن أخيه فلاح المزارع. ولا بد أنْ يكون ذلك قد حصل بشكل خاص حين استدعى الأمر هجرة الرعاة من البوادي الجافة الخالية من الواحات حيث لا يمكن إقامة زراعات مطرية وبعد انقضاء موسم الأمطار المبكرة مما يضطرهم إلى الهجرة مع قطعانهم. ثم إن انفصال الرعاة عن فلاحي البوادي قد حصل في مرحلة مبكرة جداً، لا شك في ذلك. بل من المرجح أنه حصل مع بداية فترة تربية الحيوانات الصغيرة: ففي المشرق ما زالت تربية الحيوانات الصغيرة إلى الآن من الأمور التي تؤمن للحياة الرعوية استقلاليتها؟ وربما كان ذلك مشتقاً من حياة الصيد

(١) Kenyon 1959; vgl. J. Perrot in Antiquity and Survival 2, 1957, 91 ff.; K.J. Narr a.a.O. 1959; Bobek a.a.O.

القديمة المتأصلة في هذه المناطق[١]. وبحق اعتبر هـ. بوباك، الحياة البدوية الرعوية جزءاً أو تفريعاً من الحياة البدوية وليس مرحلة زراعية قائمة بذاتها[٢]. أما مفهوم البداوة فإنه كما يخيل إلي مفهوم يجب أن لا يكون توصيفاً لنمط الحياة التي لا تعرف إقامة ثابتة، بل توصيفاً لأولئك الرعاة المستقلين. إن العهد الخزفي المبكر في حسونة، وهو يمتد إلى ما قبل أواسط الألف الخامس، والواقع على أطراف بادية الموصل وهي التي تصلح حالياً لإقامة المزارع قد أظهر وجود أماكن للرعي دون وجود أماكن سكنية ثابتة[٣]؟ إلا أن عصر حسونة لا يتوافق بالتأكيد مع بداية عصر البداوة.

أما التطورات اللاحقة التي طرأت على الحياة البدوية والتي حصلت في أماكن ثلاثة من المشرق: طوران ـ إيران، شبه الجزيرة العربية والصحراء، فقد كانت مختلفة[٤]. فالبدوي الذي استخدم الحمار أداة نقل[٥]، كان بإمكانه أنّ يشكل خطراً شديداً على الفلاح المقيم في البوادي. إن العداء بين البدوي وبين الفلاح قديم جداً، قدم قابيل وهابيل[٦].

كانت عمليات الري التي أقيمت في الأراضي المنخفضة من بلاد ما بين النهرين لا سيما في الجهة السفلى، عمليات يصعب السيطرة عليها، في حين كان هذا الأمر أكثر سهولة في الواحات التي تكثر فيها الينابيع أو القائمة عند أقدام الجبال. علينا أن نفترض وجود أماكن إقامة دائمة حيث ابتدأت تربية الأبقار وحيث تم تدجينها وحيث تمت أعمال حرث التربة بواسطة الثيران[٧]. لكن من غير المحتمل أن تكون الفلاحة في الواحات قد استقرت في هذه الدلتا النهرية قبل الربع الأخير من الألف الخامس قبل الميلاد؛ ربما كان

---

(١) Vgl. W. Dostal, The Evolution of Bedouin Life. L'antica società beduina. Studi Semitici 2, Rom 1959, 11-34, insb. Anm. 23.

(٢) H. Bobek, Hauptstufen der Gesellshafts-und Wirtschafts-entfaltung in geographischer Sicht. Die Erde 90, 1959, 259-298.

(٣) S. Lloyd, F. Safar, Tell Hasuna. Journ. Near Eastern Stud. 4, 1945. 255 f.

(٤) H.v. Wißmann, F. Kußmaul, Histoire des origines du nomadisme et ses aspects géographiques. In: BADW, Encyclopédie de l'Islam, 2me éd. 1959, 899-916.

(٥) Vgl. W. Dostal a.a.O. Er wendet sich gegen die Ansicht von der Steinzeit zum Christentum, Bern 1949, 147, 154, 162 f., 239 ff., 257), عن إمكانية البدو الذين يعتمدون تربية الماشية الصغيرة واعتماد الحمار في النقل والتنقلات في التجول خلال مراع محدودة راجع:
Vgl. R. Walz in 24. Int. Orient. Kongr. München, 1959, 150ff,; W. Dostal in: Wiener Völkerk Mitt. 1958, 93-99.

(٦) Sumerisches Gedicht Dumuzi-Enkidu. Vgl. W.Dostal a.a.O. 1959, Anm. 16.

(٧) E. Werth, Grabstock, Hake und Pflug, Ludwigsburg 1954; U. Berner, وعن ظهور المحراث وما يرتبط بذلك من مسائل راجع: Studium Generale 11, 1958, 363-377.

علينا أن نفترض أنَّ أقدم المراكز السكنية قد انطمرت هناك بفعل الغرين المتراكم: ذلك أن الدلتا قد استطاعت منذ ذلك الوقت أن تزداد تراكماً[١]. ثم إن الحفريات في جرش وفي جرش فقط حتى الآن، قد أظهرت وجود مراحل أولية في الشرق الأوسط أسهمت بدفع تاريخ الإنسانية خطوات غير عادية. وقد جرت هذه الخطوات في مناطق ما بين النهرين السفلى. إنَّ ري السهول وسط هذه الأرض النهرية كان أصعب مما هو عليه في مصر حيث يفيض النهر صيفاً وحيث تطمر الأرض بالسماد الناتج عن الطمي. كان الأمر يستدعي إنشاء سدود تخزين للمياه ليصار إلى استعمالها في أعمال الري، لكن هذه المهمة ليست سهلة ولا يمكن إنجازها إلا بتكاتف عمل عددٍ كبيرٍ من الناس. وكما كان الحال بالنسبة للواحات حيث توجد الينابيع أو تلك الواقعة عندَ أقدام الجبال، لا في جرش وحسب، إذ أدى هذا الوضع إلى قيام أماكن سكن مستقرة، قامت هنا كذلك مدن ثابتة ذات معابد وهياكل، وكانت بمثابة مدن ـ دول بنظامها التيوقراطي وبنظامها الديني ـ الكهنوتي، كما أدى الأمر إلى تمايز السكان الذين كانوا يعتمدون أولاً على تحويل أنفسهم من الزراعة إلى أن ظهر إلى جانبهم البدو والرعاة وصيادو الأسماك وإلى أن قامت حياة تجارية وفئة تعتمد العيش من وظيفتها، كما تكونت الأيدي العاملة الحرفية، وبعد ظهور الكتابة التصويرية في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد أصبح العلم أكثر يقيناً وثقة كما أصبح بالإمكان توصيله ونقله. أدت العلوم التي يتناقلها الكهان، كما أدت الكتابة والتجارة إلى بعث نظام حسابي على جانب من التعقيد. وفي العصور اللاحقة التي تولت القبائل الكبرى الحكم إبانها ظهرت الممالك الكبرى ومعها لم تعد المدينة مجرد أماكن سكنية تحيط بالمعبد، بل أحاطت أيضاً بالقصر مع ما في ذلك من أحياء تجارية وصناعية منفصلة بحسب نوع الحرفة؛ كما ظهر السوق والخان وأماكن انطلاق القوافل.

بعد هذه المراحل الأولية التي استمرت لقرون، لقحت هذه الحضارة الناضجة في بلاد ما بين النهرين حضارة أرض النيل. هنا في أرض النيل نجد حضارة قديمة مغلقة

---

(١) بالنسبة لمصر. قام لوتز استناداً إلى دراسات هافمان بمتابعة هذه المسألة. وقد طرأت بعض التصحيحات على أعماله. إذ لا بد من افتراض أن تراكم غرين الفيضان في النيل قد ابتدأ بعد العام ٦٥٠٠ ق.م. كما أن عدم طغيان مياه البحر قد ابتدأ ما بين العام ٢٠٠٠ و٥٠٠ ق.م. ولعلَّ هذه الدلتا لم تكن كثيفة السكان. كما أننا لا نعلم بالتحديد متى ابتدأ استقرار السكان فيها. راجع:

Butzers Arbeiten, hier, Anm. 1; D. Hafemann, Die Frage der eustatishen Meerespiegelschwankung in historischer Zeit. Verh. Dtsch. Geographentag 32, Berlin 1959, Tagungsber. u. Wiss. Abh. 1960, 218-231; H. Graul, Der Verlauf des glazialeustatischen Meeresspiegelantieges, berechnet an Hand von C14-Datierungen. Ebd. 232-242.

على نفسها، إلا أنها استطاعت أيضاً ومنذ بداية الألف الثالث قبل الميلاد أن تستنبط شكل كتابة خاص بها، دون أن نستبعد وجود تأثيرات لحضارة ما بين النهرين عليها. فحوالي أواسط الألف الثالث قبل الميلاد كانت الطرق البحرية التي تعبر المحيط الهندي والمتوسط قد بلغت حداً بعيداً من التطور(١)؛ وفي بلاد الهند حيث نجد ثالث الواحات النهرية بدأت تصادفنا في هذا الوقت «مدنية» مدينية على جانب من الجهوزية. بعد ذلك وبعيد الألف الثاني قبل الميلاد تم بلوغ الطريق الأرضية الطويلة والممتدة عبر سلسلة الواحات الواقعة عند أقدام الجبال وصولاً إلى شمال الصين الغني ببواديه: هـذا وقد طورت الصين كتابة تصويرية خاصة بها(٢). بعد ذلك يبدو أنه قد تم اكتشاف الطريق البحرية الواصلة ما بين جنوب شرق السواحل الصينية وصولاً إلى جنوب أميركا، الأمر الذي أوصل شرر الحضارة حوالي القرن السابع قبل الميلاد إلى الشواطىء الغنية بواحاتها في البيرو(٣).

لم نبدأ معاينة تربية الجمال(٤) وكذلك الخيل(٥) إلا بعد أواسط الألف الثالث قبل

---

(١) Vgl. R. Delbrueck, Südasiatische Seefahrt im Altertum. Bonner Jahrbücher 155/6, 1955/6, 8-58, 229-308; A.L. Oppenheim, The Seafaring Merchants of Ur. Journ. Amer. Orient Soc. 74, 1954, 6-17; D.E. McCoron, The Indus Civilization, ebd. 196-179; neuerdings die dänischen Ausgrabungen in al-Bahrain. Seeverkehr Agyptens mit Punt seit Sahure.

(٢) عن التاريخ المبكر للبدو أصحاب الخيل (الفرسان) في آسيا. راجع:
R. Heine-Geldern, China, die Ostkaspische Kultur und die Herkunft der Schrift. Paideuma 4, 1950, 51-92; M. Loehr, Zur Urgeschichte Chinas. Saeculum 3, 1952, 15-55; K. Jettmar in: A. Randa, Handbuch der Weltgeschichte I, Olten-Feiburg 1954, 342-348; H.v. Wißmann, H. Poech, G. Smolla, F. Kußmaul, On the Role of Nature and Man in Changing the Face of the Dry Belt of Asia. In: W.L. Thomas, Man's Role in Changing the Face of the Earth, Univ. Chicago Press 1956.

(٣) Vgl. R. Heine-Geldern, Herkunft und Ausbreitung der Hochkulturen. Akad. Wiss. Wien, Almanach für 1955 (105. Jg.), 1056, 252 bis 267; ders., Kulturplfanzengeographie und das Problem vorkolumbianischer Kulturbeziehungen zwischen Alter und Neuer Welt. Anthropos 53, 1958, 361-402; G.F. Carter, Plant Evidence for Early Contacts with America. Southwestern Journ. of Anthropol. 6, 1950, 161-182. R. Heine-Geldern, Die asiatische Herkunft der südamerikanschen Metalltechnick. Paideuma 5, 1954, 347--432.

(٤) A. Pohl, Das Kamel in Mesopotamien, Orientalia 19, 1950, 251 ff.; 21, 1952, 373f.; H.v. Wißmann a.a.O. 1957, Anm. 108.

(٥) F. Kußmaul, Frühe Nomadenkulturen in Innerasien. Tribus, Jahrb. d. Lindenmuseums 195/3, 305-360; ders., Das Pferd in der Geschichte. Aus der Heimat 61, 1953, 113-123; ders; Diss. 1953 a.a.O.; Wißmann-Kußmaul a.a.O. 1959; J. Boebnek in: Ber. d. Röm.- Ferm. Kommission 1955, Berlin 1959; F. Hancar, Das Pferd in prähistorischer und früher historischer Zeit, Wiener Beitr. z. Kulturgesh. u. Linguistik 9, 1956, يعتقد Hancar بأن الحصان قد ظهر في مناطق أوكرانيا. فيما يظن آخرون أنه لا قرائن على تدجين الخيل قبل العام ٢٠٠٠ ق.م. وعن الجمل ذي

الميلاد. إنَّ الموطن الأول للجمال ذات السنمين كان طوران، أما موطن الجمال ذات السنم الواحد فكان داخل شبه الجزيرة العربية على ما يظهر. أما الحصان فإننا نشهد بداية تربيته منذ الألف الثالث قبل الميلاد. علماً أن تربية البغال قد بدأت قبل هذا الوقت في أواسط وشمال المشرق ثم انقطعت هذه التربية فيما بعد. أما الحضارة التي كان لتربية الخيل النصيب الأكبر في تطويرها فقد كان عرابوها الذين أسهموا فيها على الأرجح الفلاحون من الأصل الهندوجرماني، سكان البوادي في جنوب روسيا وفي القوقاز، إلى جانب الصيادين في الشمال وإلى جانب المزارعين في المرتفعات الآسيوية الشمالية. فحتى منذ ما قبل الألف الثاني قبل الميلاد شاركت الشعوب الهندوجرمانية في الغزوات على بلدان المشرق وعلى اليونان: الأوقات المبكرة للألف الثاني كان الحصان معروفاً في شرق آسيا الصغرى، إذ كان الحيوان المستخدم في جر العربات. وفي المعارك التي وقعت أواسط الألف الثاني قبل الميلاد بين اليونان غرباً والهند والصين شرقاً شاركت الشعوب الهندوجرمانية بقوة، كما لعب الحصان والعربات ذات العجلتين التي تجرها الخيل دوراً حاسماً، كما سجلت مشاركة هذه الشعوب أيضاً في جزء كبير من الحروب التي كان المشرق مسرحاً لها عند نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد: ومن الأرجح أن تكون هذه الحروب قد أوصلت شعوب الشمال من مربي الخيل إلى عمق الصحراء[1]. شكّل البدو غالبية الشعوب الشمالية التي استطاعت التوغل في المشرق إبان هذه الفترات. لقد كانوا فيما يظن من فلاّحي البوادي، وكانوا في الصين من فلاحي الواحات: ومن المعلوم أنّ البوادي الشمالية كانت قد تحولت في هذه الأثناء ووصولاً إلى سيبيريا إلى أراض زراعية. أما البدو الخلص من المحاربين ومربي الخيل فقد كانوا أول الأمر من السكيثيين ومن جيرانهم في المناطق الشرقية. كان ذلك بحدود العام ٩٠٠ ـ ٨٠٠ ق.م. ومعهم ابتدأت، كما لو كان الأمر ردة فعل وحشية، حركة البداوة الواسعة التي انطلقت من البوادي الشمالية لتنتقل غرباً فشرقاً. استطاعت هذه الشعوب الفلاحية القادمة من البداوي وهي شديدة الاعتزاز بنفسها ولما تتمتع به من نظام اجتماعي يقوم على التراتب، استطاعت أن تعيد تنظيم نفسها واستطاعت طبقة الأسياد فيها أن تؤثر لاحقاً على ظهور

= السنمين راجع: vgl. auch Wißmann a.a.O. 1957, Anm. 108. W. Nagel, Frühe Tierwelt in Südwestasien (I), Berliner Beitr. z. Vor-und Frühgeschichte Bd. 2 (Gandert-Festschr.), Berlin-Lichterfelde 1959, 106-118, Taf. 9-27.

(١) H. Lhote, Le cheval et le chameau dans les peintures et gravures du Sahara. Bull. de l'Inst. Franc. d'Afrique Noire 15,3, Dakar, IFAN, 1953. Bald begann dort ein satteloses Pferdereiten.

قادة الشعوب الرعاة وفي القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد وصلت هذه الشعوب حدود الصين[١].

أما في المناطق المنبسطة في طوران الإيرانية في المشرق فإن وجود البدو من الفرسان أصحاب الخيل فيها، قد جعل الحياة الزراعية في البوادي أمراً شبه مستحيل (كذلك أيضاً في جنوب شرق أوروبا والمجر) كما خضعت الحياة الفلاحية في الواحة لرحمة البدو من الخيالة.

كان تاريخ البداوة في الصحراء وفي المنطقة العربية تاريخاً مختلفاً إلى حدٍ ما. فقبل التوغل في الصحارى الوسطى، انطلاقاً من الشمال حوالي العام ١٢٠٠ ق.م. على الأرجح، وهو التوغل الذي أوصل الخيل إلى الصحاري، كان الثور على ما يظهر من الرسوم والتصاوير الحيوان الذي تم تدجينه وتربيته[٢]، مما يجعلنا نربط بين هذه المناطق وبين التطور اللاحق للبداوة التي تعتمد تربية الثيران في مناطق السافانا الجافة في افريقيا. ففي جنوب شبه الجزيرة لا أعرف إلا منطقة واحدة كان البدو فيها يعتمدون تربية الأبقار، إنها منطقة قارا الواقعة على مرتفعات ظفار، وهي من مناطق السافانا الجافة[٣]. وفي الحالات الأخرى تعتبر الثيران في شبه الجزيرة من حيوانات الجر عند الفلاحين.

أنْ تكون شعوب الشمال قد وصلت بحلول الألف الثاني أو (و) بحدود العام ١٥٠٠ ق.م. حتى جنوب شبه الجزيرة العربية فتلك فرضية تتعزز باستمرار، حيث نجد في اليمن تشابهاً مع الشعوب الأروبية، كما نجد تجمعات تمتاز بعيونها ذات اللون الأزرق[٤]. ولا بد أن تحولاً ما قد حصل في النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد، إذ تحول سكان الجزيرة العربية بتربيتهم للجمال ذات السنم الواحد من تربية الحيوانات الصغيرة إلى تربية الحيوانات الكبيرة، كما لا بد لنا من ربط هذا التحول بظهور القوافل

---

(١) Die genannten Arbeiten von F. Kußmaul; Karte von F. Kußmaul; Karte von F. Kußmaul in: Wißmann-Poech-Kußmaul 1956 und Wißmann-Kußmaul 1959.

(٢) Lhote a.a.O.; K.W. Butzer 1959 b und: Abh. Ak. Mainz Math.- nat. KI. 1958, Nr. 1.

(٣) في اليمن تم استخدام كل الأماكن التي تمتاز بمناخ مناسب لسهوب السافان الجافة في الزراعة.

(٤) H. Poech in: H.v. Wißmann, Arabien und seine kolonialen Ausstrahlungen, in: Lebensraumfragen europäischer Völker II, Koloniale Ergänzungsräume. Leipzig 1941, 395-400; S.A. Huzayyin, Egyptian University Scientific Expedition to S.W. Arabia; Ba'tat al-Gami'a al-Misriya ila L-Yaman wa-Hadramaut (1936), Taqrir mabda'i nata'ig a'maliha l-'ilmiya wa-t-taqafiya, Bull. Faculty of Arts, University of Egypt 4 1936, engl. Summary 137-143, arab. 187-220.

التجارية وانتشارها وبالمعارك الحربية بين البدو وأنصاف البدو. ففي كتاب القُضاة: ٦ - ٨ (من العهد القديم) نجد وصفاً لاقتحام الميديين في القرن الحادي عشر أرض كنعان بقطعان جمالهم الكبيرة. أما أول رواية وصلتنا عن قافلة جمالٍ عبرت طريق التوابل في أرض الجزيرة العربية فهي وصف لزيارة ملكة سبأ للملك سليمان في القرن العاشر قبل الميلاد. أما المحاربون على ظهور الجمال فقد ظهروا في النقوش الآشورية في القرن التاسع بوصفهم العرب(١). وفي القرون التي تلت أُدخلت إصلاحات متكررة على السروج التي توضع على ظهور الجمال قياساً على السروج التي كانت توضع عادة على ظهور الخيل(٢). وفي العام ٧١٥ كما في العام ٦٨٥ قدَّم ملوك جنوب شبه الجزيرة العربية الهدايا إلى الملك سرجون والملك سنحاريب الآشوريين (طريق التوابل الشرقية).

لا بدَّ أنَّ الصراع على السيطرة على طريق التوابل، وهو الصراع الناشب بين تجار القوافل، وبنتيجة اكتشاف الطريق البحرية في القرن الأخير قبل الميلاد، بين مصر وبين جنوب شبه الجزيرة العربية، ومن ثمَّ إلى الهند، وهي الطريق الأسرع، لا بد أنه قد ألحق أشد الضرر بالبدو الذين يعتمدون تربية الجمال. إلا أنَّ هذا الصراع قد فرض التوجه لبدائل سواء عبر طرق القوافل العابرة لشمال شبه الجزيرة شرقاً وغرباً، أو بالعمل ومنذ القرن الثاني بعد الميلاد كمرتزقة في الحروب القائمة بين البيزنطيين والفرس، أو مع دولة تدمر، أو فيما بعد بالانخراط في الاضطرابات في جنوب شبه الجزيرة، وهو الصراع الذي كانت الحبشة طرفاً فيه أيضاً، أدى استعمال السروج المشابهة للسروج الموضوعة على الأحصنة إلى جعل فرق الجيوش التي تعتمد الجمال أكثر اكتمالاً.

لقد نسي العربيُّ، راكب الجمل فنَّ الكتابة، لكنه اخترع الغزو، الغزو القائم على إغارة الفرسان من راكبي الجمل والجواد. وهكذا تحوَّل العربيُّ حوالي القرن الثالث الميلادي إلى بدوي(٣).

وبعد أن استطاعت مصر أن تقف عازلاً يحول دون تأثير العرب على شمال إفريقيا ولمدة تزيد على ألفِ سنة قام بطليموس الثاني (القرن الثالث قبل الميلاد) بقيادة بدو

(١) A. Grohmann, Artikel: Al-'Arab, in: Encyclopaedia of Islam, 2. ed, I, 1958; H.v. Wißmann: Bedouin Nomadism in Arabia, ebd. I, 1959, 880-886.

(٢) W. Dostal a.a.O. 1959.

(٣) W. Caskel, The Bedouinization of Arabia. The Amer. Anthropologist 56, 2, 2, Mem. 76, 1954, 36-46; W. Dostal, Zur Frage der Entwicklung des Beduinentums. Archiv f. Völkerkunde 13, 1958; H.v. Wißmann, Bedouin Nomadism in Arabia a.a.O.

الجمال العرب في تسيير قوافل من النيل إلى البحر الأحمر. وفي القرن الثالث بعد الميلاد كانت العشائر المقيمة هناك من أكثر خيالة الجمال خطراً. فمنذ القرن الرابع نجد شواهد تؤكد بأنَّ الجمل قد أصبح الحيوان الذي يعتمد عليه في عبور الصحراء. بإمكاننا القول إذن: إن الصحراء قد ابتدأت تصبح جزءًا من المشرق[١].

حول المدينة الواقعة في قلب الواحة، وحول الواحة بسكانها العاملين بكل نشاط على ري أرضها وتقسيمها قطعاً صغيرة وتحسينها قطعة قطعة، تقع البوادي والأراضي الصحراوية التي لا تعتبر ملكاً لأحد. وتقع المراعي التي لا تخضع لعناية أحد والتي يرتادها بدو الجمال، الذين لولا جمالهم التي استخدمت في أعمال النقل، لما كان بإمكان مدن الواحات أنْ توصل تجارتها إلى الأماكن القصية. لا مجال لتعزيز العمل أو تغيير النظام الاجتماعي للبداوة دون اعطاء شكل الحياة البدوية واجبات جديدة. أما أهم دعائم هذا الشكل من الحياة، فهو الترابط العشائري الذي يقوم على مبدأ النسب. فمن الخضوع التراتبي الحر بقيادة شخصية تدعى للقيادة يتكون الميثاق الذي ينضوي تحته تحالف أكبر. ولا يقبل هذا التحالف بسهولة سلطة دولة مركزية تكون خارجة عنه. أما إذا استطاعت هذه السلطة أن تفرض نفسها، كما هو الحال الآن بوجود السيارة والطائرة فإن ذلك يعني انهيار الحياة البدوية ـ تعتبر دائرة الاهتمام الاقتصادي في الصحراء بالنسبة للبدو المتمسكين بحريتهم حيزاً اجتماعياً يعطى الأفضلية.

وبما أنَّ البادية القابلة للاستصلاح تعتبر من أفضل المراعي أيضاً، فإن فلاح البوادي كان يعاني باستمرار، خاصة بعد أن اكتملت عدة المحاربين الخيالة البدو، وهذا ما جعل مناطق أُخرى من أكثر الأمكنة كثافة والأفضل مناخاً، إنها الأطراف الأكثر تطوراً عند حدود المناطق الجافة والواسعة في (شمال) الصين، وفي البنجاب من الهند القيدية، وصولاً حتى المعابر العليا. إنَّ السكان الذين يعتمدون على الفلاحة المطرية في المشرق قد آثروا الإقامة الثابتة في الجبال، وهم الذين يمكن إطلاق اسم القبيليين عليهم (البربر) في مناطق افريقيا الشمالية الغربية[٢]. ومن الأمثلة على ذلك بلاد اليمن، وعُمان ولبنان، وبعض أجزاء القوقاز ومناطق البامير وهندكوش، كذلك أيضاً فلسطين التي كانت بسبب موقعها، كنقطة عبور ما بين مصر وبين بلاد ما بين النهرين منطقة شديدة الخطورة، أما

(١) H.v. Wißmann , The Appearance of Camel Nomadism in North Africa. In: BADW, Encyclopaedia of Islam, 2. ed. I, 1959, 887 ff.

(٢) H. Bobek a.a.O.; ders., Stellung und Bedeutung der Sozialgeographie. Erdkunde 2, 1948, 118-125.

شمال الحبشة فقد كان حوالي العام ١٠٠٠ ق.م. أو بعده بقليل مستعمرةً لليمن حيث استقبلت الزراعة المتطورة واستعمال المحراث وكانت تمتد جنوباً إلى حدود مناطق الغابات الواقعة على المرتفعات.

أصبح فلاح الواحات الصغيرة غالب الأحيان خاضعاً للبدوي الخيال. وكان عليه أن يدفع أغلب الأحيان «خوّة الحماية» في الجزيرة العربية ليتخلص من النهب. أما في بلاد ما بين النهرين فقد كانت تهديدات البدو للمزارعين في البوادي سبباً في الانتقال من نظام تيوقراطي[١]، إلى تيوقراطية ملكية مقيدة، كما أن التراتب البدوي، كما النظام التراتبي لفلاحي الواحات قد أديا إلى تعزيز الملكية وإلى ظهور وتشكيل المدن والدول. بل إلى ظهور الدول الكبرى. لكن تكرار الغزوات وسيطرة البدو الخيالة وما برز من شخصيات امتازت بقوة إرادتها قد جعل مسألة تبديل السلطة خطراً قائماً، مما لم يسهم كما كان الحال في المدن اليونانية والأوروبية فيما بعد، بقيام ديموقراطية أو أنظمة اوليغارشية تستند إلى بورجوازية نخبوية. ثمة أمائر ومقدمات برزت عند أطراف المشرق ومع ظهور المرافىء التجارية التي أقامها الفينيقيون على الشواطىء البحرية والتي ارتبطت مع المدن اليونانية بحقوق الحماية إنْ على جزر معينة أو بالنسبة للسدود المُقامة بين الجبال أو على البحر. وقد تعززت هذه البدايات بفضل تجارتهم مع المدن البعيدة ومنذ الألف الثاني قبل الميلاد، وبفضل اكتشافهم للكتابة الخطية وترويجهم لها. لقد استطاعت هذه الكتابة نظراً لبساطتها أنْ تنتشر وأنْ تحل مكان الكتابة التصويرية في أرجاء بعيدة من المشرق.

وبالطبع قامت بعض الواحات ـ المدن بنظامها الاليغارشي والديموقراطي ـ وكانت هذه المدن ؛في الواحات محاطة بالمجالات التي يقطنها البدو، وقد اعتمدت اخضاع السكان المزارعين المحيطين بها. نشير في هذا الإطار إلى المدينة التجارية مكة التي اشتهرت أيضاً باعتبارها مكاناً مقدساً تؤمها القبائل البدوية للتبرك بالحجر المقدس حينها (وربما كان أيضاً سوقاً يصل بين هذه المناطق البدوية) كما نشير إلى المدينة الواحة يثرب الفنية بينابيعها وبما كان فيها من سكان وثنيين ويهود. وإبان ظهور الإسلام باستطاعتنا أنْ نشير إلى التجارة القائمة عبر الصحراء والتي أدت إلى ازدهار المدينة الجمهورية في الصحراء الليبية غدامس، والمدن المستقرة في مزاب في المناطق الصخرية في قلب الصحراء الجزائرية: هذا وقد تأسست هاتان المدينتان قبل حوالي ٩٠٠ سنة من قبل

(١) H. Frankfort, The Birth of Civilization in the Near East. London 1951.

سكان الواحات/المدن إذ أقام المهاجرون من الإباضية واحات أمدوها بمياه الآبار العميقة. ثم استطاع سكان المزاب الاستمرار بفضل سياستهم الحكيمة وبفضل الدور الذي لعبوه إبان فترة التجارة الشتوية التي كانت تربط ما بين المتوسط وتمبكتو، وقد استطاعوا استخدام ديبلوماسيتهم تجاه القبائل البدوية الذين كانوا يقومون بدور قيادة القوافل التجارية. علماً أن المزارعين المجاورين والخاضعين لهم قد قاموا بدورهم في تنظيم واحتهم[١].

ولكن وفي قلب مناطق المشرق وبشكل خاص في الواحات النهرية مع ما تفرضه من وجوب القيام بعمل جماعي، فإن مسيرة التاريخ والحفاظ على حياة زراعية حرة أو قيام مواطنية مدينية مسؤولة، إنَّ كل ذلك لم يكن بالأمر المتيسر. هذا ما نجده أيضاً في قوانين حمورابي (بعد العام ١٧٠٠ ق.م.) فإلى جانب الملك وحاشيته من الموظفين المرتبطين به ولا سيما عمال المعابد والهياكل نجد أنَّ التجار الكبار أو رجالات المجالس المدينية قد كانوا أيضاً من كبار ملاكي الأراضي. لقد جرى تطوير نظام حسابي جد متخصص، كما جرى تحديد معقلن قانوني لنمط الملكية الذي طال الأرض والمياه وكل أشكال الإنتاج وإنجازات العمل التي يقوم بها الفلاحون، بل لقد طال هذا النظام كافة فروع الاقتصاد وامتداداً حتى نظام الرق. وكل تخطٍ لهذا النظام من قبل سادة غرباء كان يؤدي إلى إعادة تشكيله بشكل أكثر قسوة. إن المدفوعات التي تعطى للنظام وللمعبد أو المدفوعات التي كانت تعطى أيضاً وبتزايد للعشائر المدينية قد تحولت إلى رأسمال ريفي كما يقول هـ. بوبك، أي إلى رأسمال لم يعد مفيداً في اعادة تفعيل الانتاج. وكما هو الحال بالنسبة للدولة والمعبد، فإن الأمر ينطبق أيضاً على العشيرة وعلى كبار التجار وكبار الملاكين. فكل واحد من هؤلاء يقوم بتنظيم إدارته منفصلاً عن الآخرين. قد يتوحدون أحياناً في حالة الدفاع عن النفس، وغالباً ما ينقادون للنظام الذي يفكر بالمعبد وبالقصر وبالموظفين والأسياد، ولكن نادراً ما يفكر بفلاحي الواحات. وهكذا ظلت مساحة الاستثمارات صغيرة، وكل موسم سيء كان يؤدي إلى تضخم ديون الفلاحين وإلى زيادة تبعيتهم؛ مما يحول الاقتصاد بالنسبة للملك إلى اقتصاد عبودية. لقد أصبح الأمر مألوفاً جداً أن يتحول كبار الملاك دائنين للفلاحين، الذين توجب عليهم إقامة أوَدَهم بأغلى الثمن. والذين توجب عليهم أيضاً بيع محاصيلهم بأرخص الأسعار. هكذا كان كل

(١) M. Mercier, La civilization urbaine au Alger 1932; G. Niemeier, Stadt und Ksar in der algerischen Sahara, besonders im Mzab. Die Erde 1956, 105-128.

محصول سيء سيؤدي حتماً إلى زج الفلاحين للوقوع في عبودية دين لا أمل بالخلاص منها. ثم إن بدلات الاستئجار قد ارتفعت لتأكل نصف ما يقدر من محصول. ثم إنه لم يعد للفلاحة الحرة من وجود يذكر إلى جوار المدينة الواحة. هكذا كان الوضع الاقتصادي يدفع بالفلاح إلى الحياة ضمن حدود العيش الدنيا. وفي الوقت نفسه فقدت المدينة كمدينة صفة الوحدة السياسية (هذا إن كانت قد حصلت عليها أصلاً). إذ شكّل أهل العشيرة والحرفيين والمجموعات الدينية دوائر مستقلة في داخلها. لقد كانت شكلاً طفيلياً[١]. ومن المعلوم أنّه وبحسب المناطق والأحقاب التاريخية، فإن نصيب السلطة الملكية من الملكيات كان أدنى مما هو عليه في الأنظمة غير المستقرة، أو عند سيادة علاقات فوضوية. لقد قارن ن. رودوكاناكيس، (N. Rhodokanakis) العلاقات بين سبأ وصرواح، وفي مجال ومحيط الواحات المركزية عند الأقدام الشرقية لمرتفعات اليمن، مع ما يقابلها من واحات قامت في الحقبة نفسها في مصر زمن البطالمة: ففي أراضي الواحات الجنوبية الموازية لقتبان، كان الحاكم رئيس الكهنة في المعبد الكبير أيضاً، وكان الفلاحون بمثابة عبيد له[٢].

إن السيرورة المشار إليها هنا، نعني بها سيرورة التحول الزراعي، ليست سيرورة تنطبق على معظم مناطق الواحات في المشرق وحسب، بل أيضاً وبقوة على أراضي البادية وذلك بقدر ما كانت هذه البوادي مسرحاً لحياة فلاحية أو زراعية. وإذا كانت المدينة عاجزة رغم تقديمها للضرائب والإتاوات عن دفع خطر النهب الذي يقوم به البدو الغزاة، فإن النتيجة التي ترتبت على ذلك كانت المزيد من إقفار المساحات المزروعة، وإلى هذا الخطر يضاف خطر الجفاف الذي قد يستمر أعواماً.

أما الذين استطاعوا التحرر من تعسف المدن ـ الدول في المشرق، فقد كانوا من فلّاحي الأقاليم، الذين امتازوا أيضاً بصفات الفلاحين المتحصنين في الجبال، كالبربر، نعني بذلك ما أشار إليه هـ. بوباك في توصيفه لهذا النمط من الحياة[٣]. وبالنظر إلى

(١) H. Bobek a.a.O. 1959; ders., Aufriß einer vergleichenden Sozialgeographie. Mitt. Geogr. Ges. Wien 91, 1949, 34-45; ders., Soziale Raumbildung am Beispiel des Vorderen Orients. 27. Dtsch. Geographentag, München 1948 1950 , 193-207.

(٢) N. Rhodokanakis, Die Bodenwirtschaft, Sitzber. Akad. Wien, Phil.-hist. Kl. 194, 1919, 2; 198, 1922, 2; A. Grohmann, Südarabien als Wirtschaftsgebiet I, Wien 1922, II, Brünn 1933; J. Ryckmans, L'institution monarchique en Arabie méridionale avant l'Islam. Bibl. du Muséon 28, Louvain 1951.

(٣) N. Rhodokanakis, Altsabäische Texte I. Sitzber. Akad. Wien, phil. hist. Kl. 206, 1927, 2.

الاعتبارات المناخية، فإننا نشير إلى فلّاحي القوقاز، والبامير وفي محيط هندكوش وأودية الأقاليم، وفي اليمن نشير إلى الأقاليم الجبلية، وإلى سكان المرتفعات وذلك بقدر ما تستند حياة هؤلاء إلى الزراعة المطرية مع الاعتماد على تربية الحيوانات الصغيرة بوتيرة قد تكون قوية أو ضعيفة؛ كما نشير أيضاً إلى مناطق الوديان الواسعة في حضرموت وعمان وإلى مناطق غرب البامير وهندكوش حيث لا يستبعد قيام زراعات تعتمد طرق الري الاصطناعي. يتقاطع التكون العشائري مع التلوينات التي تقتضيها طبيعة النتوءات وتكون الأقاليم. ثمة تداخل كبير يمتد من صراع الأحزاب إلى التقاتل الفوضوي الفردي، وإلى شكل الجماعات بحيث نجد تداخلاً بين قيام الحروب الصغيرة فيما بينها وبين التسليم بقيام النظام. وفي هذه المناطق تكثر الحصون التي تقيمها القبائل أو تلك التي تقام في القرى بهدف حمايتها. ثمة تحولات كثيرة إلى الحياة البدوية التي تعتمد الصيد أو إلى الحياة نصف البدوية ـ الجبلية، وأيضاً إلى البنى الاقطاعية القصيرة بحيث نجد أكثر من تشابه بين القلاع التي قامت في القرون الوسطى ومنها ما هو بعظمة حصن زيبسر (Zipser) . وأحياناً تتشابه القلاع مع حصون المدن الصغيرة. ففي جنوب شبه الجزيرة العربية قام أحد حكام سبأ وانطلاقاً من منطقته الأساسية في أراضي الواحة لجهة الشرق حوالي العام ٣٠٠ ق.م. بتسوير سلسلة من المدن الصغيرة في الأودية المرتفعة المنتشرة على الجبال اليمنية والتي تعتبر منحدراتها أقل توحشاً مما هو في الأقاليم الجبلية في المناطق المحيطة. ثمة جزء من هذه المدن الصغيرة مازال قائماً حتى اليوم وهو ما يشكل مراكز نصف زراعية وتجارية ـ حرفية، وهي ما زالت مراكز إقطاعية أو عواصم لأقاليم تحاول متابعة لعب دور في السلطة[1]. يظهر كتاب الهمداني في وصفه لليمن وهو الموضوع حوالي القرن العاشر بعد الميلاد أنَّ أسس التمركز السكاني وكثافة السكان في المرتفعات الجبلية في اليمن وبالرغم من التحولات التاريخية ما زالت قائمة بشكلها القديم وحتى يومنا هذا.

إن الأماكن الصالحة للسكن في المشرق ما زالت على حالها، ذلك أنَّ استصلاح الأراضي المكسوَّة بالغابات لم يغير من الأمر شيئاً. أما في المناطق الواقعة خارج هذا الإطار، في المناطق الجافة الواسعة في الصين أو الهند أو في أوروبا، فإن الأمر كان ممكناً إلى أبعد الحدود. وبإمكاننا معاينة هذه السيرورة بوضوح كلي في الهند. فإبان المرحلة

(١) L. Forrer, Südarabien nach al-Hamdâni's «Beschreibung der Arabischen Halbinsel». Abhdlg. f.d.K de. Morgenlandes 27, 3. Leipzig 1942.

الحديثة من تطور القيدية (١٠٠٠ ـ ٦٠٠ ق.م) تم توسيع الحياة الزراعية ونشرها انطلاقاً من البوادي والسهوب الشجرية باتجاه عمق الغابات، ومن البنجاب ووسارافاتي ومن مناطق الغانج العليا باتجاه كوزالا وماغادا، أي إلى مناطق نفوذ بوذا (القرن السادس).

كذلك تتوافق الحدود الجنوبية الشرقية لمملكة الصين حوالي العام ١١٠٠ ق.م. ـ وكما أظهرتُ ذلك ذات مرة ـ مع الحدود الطبيعية لفلاحي البوادي وبالاختلاف مع الغابات[1]. أما موطن كونفوشيوس (القرن السادس) وتايشان فقد كانا عند حدود المناطق الجافة للغابة في شرق الصين القديمة؛ أما موطن الديانة اللاوتسية فقد كان إلى الجنوب من مناطق الغابات المستعمرة. وفي الألف الثاني قبل الميلاد كان بإمكان المؤرخ الصيني الكبير سزيماتر ـ أين أنْ يقول عن الأرض الواقعة على ضفاف نهر يانغ تسي إنها كانت جد واسعة وكثيفة السكان. كان الأكل متوفراً دون الاعتماد على التجار، ودون تخزين الأغلال. قد يكون الناس فقراء إلا أنهم لا يعانون البرد والجوع ولم يكن يوجد أحد يملك الثروات. لقد عبر عن ذلك كله ليظهره نقيض ما كان يحصل في الأرض الأساسية للصين القديمة في مناطق الشمال. لقد كان الأمر قديماً على ضفاف يانغ تسي ومشابهاً بالفعل لما عاينتُهُ أنا في المستنقعات التي تزرع بالأرُز وقد تعرفت عن قرب إلى نمط زراعتها الحرة في جنوب هونان. لقد كان تكاثر الأرض المزروعة بالغابات عند ضفاف يانغ تسي الرطبة عملاً استغرق قروناً، وكان إنجازاً لا شبيه له في الحياة الصينية من زاوية استغلالها للأرض. ففي شمال غرب الهند كما في شمال الصين كان ظهور نوع من «الرأسمال الريعي» بالمعنى الذي أشار إليه هـ. بوباك أمراً بالغ التأثير، وإن لم يكن بالحدة التي عرفت في المشرق. وكما هو الحال في ألمانيا إبان القرون الوسطى يجب أن تكون الحالة قد تحسنت في الأراضي المستصلَحة لتصبح أفضل مما هي في مناطق أخرى.

وإلى الغرب وشمال غرب المشرق يقع البحر المتوسط بجانبه الشرقي متوسطاً بين الأرض الصحراوية وبين البوادي في الجنوب والأراضي المكسوة بالغابات شمالاً. تعتبر الشواطىء الشرقية، كريت واليونان وجنوب إيطاليا ومن حيث طبيعتها أراضٍ ثمينة بالبوادي. لقد ظلت المستعمرات الفينيقية التجارية غالب الأحيان عند الأطراف. أما

(١) H.v. Wißmann, Südwest-Kiangsu, der Wuhu-Taihu-Kanal und das Problem des Yangdse Deltas. Wiss. Veröff. Dtsch. Museums f. Länderkunde Leipzig NF 8, 1940, 61-106, Karte Abb. 11; vgl. A. Herrmann, Atlas of China, Cambridge/Mass. (Harvard) 1935.

التوغل اليوناني في الداخل فقد كان بهدف استصلاح المخزن الأرضي الواقع بين الشاطىء وبين الجبال ـ خاصة إذا لم تكن هذه الأراضي قد خضعت سابقاً لسيطرة الشعوب القديمة ـ كذلك عمل اليونانيون على إلحاقها بملكيتهم. أما من حيث الجوهر فقد حرصت الدولة اليونانية وخاصة بعد أن أصبحت قوة بحرية (وكانت بذلك وريثة الفينيقيين في بعض الأمور)، وبمعرفة كاملة لحضارات الشرق القديمة، حرصت على ترك الحياة في هذه المدن لتأخذ مجراها الطبيعي فجعلت من سكان الحواضر الملتفين حول حصنهم في مدينتهم أو أحياناً في دولتهم مواطنين أحراراً، ولم يُستثن من ذلك إلا ما كان في آسيا الصغرى حيث كانوا ضحية المملكة الكبرى التي ضمت قارة بأكملها[١].

تعتبر الحقبة الممتدة بين القرن الثامن والخامس قبل الميلاد مرحلة تأسيس مستعمرات في الصين كما في الهند أو على المتوسط. وكان استصلاح الأراضي قد أصبح أكثر سهولة بفضل استخدام الحديد الذي تم استيراده. وبإمكاننا بسهولة أن نميز سوء حالة الأرض القديمة من الأرض المستعمرة. ففي الأماكن الثلاثة المشار إليها (الصين ـ الهند ـ حوض المتوسط) تأتي هذه المرحلة بعد ألف سنة من الغزوات القوية التي جاءتها من مناطق السهوب الشمالية والتي شاركت فيها الشعوب الهندوجرمانية. وفي هذه الأثناء تأتي أيضاً وعند منعطف الألف الأول قبل الميلاد، الحِقَب التي أوجدت هوميروس والمهابهارتا وكونفوشيوس الذي يعتبر نموذجاً لأول حكام الصين القادمين من جهة الغرب والمنتمين إلى أسرة شو.

إن الخطوات الكبرى المتمثلة بالنبوة وبالأشكال الفكرية الأخرى، وظهور الديانات والفلسفات التي ظهرت في هذه الفترة إن في إيران أو في أرض اليهودية واليونان والهند والصين، إنما ظهرت بطرق ذهنية مختلفة ومتيسرة. بما يخص ظهور هذه الأفكار في أوقات متقاربة، أشير، كما فعل سابقاً أ. منغهين O. Menghin أو سواه، إلى مقالة تتناول الأمكنة التي شهدت تطور الإنسان. والصورة التاريخية التي وصفها كارل ياسبرز والمتمثلة «بالتحول الكبير من الخرافة إلى الكلمة» تعطي هذه الحقبة دلالة مركزية[٢].

---

(١) E. Kirsten, Die griechische Polis als historisch-geographisches Problem. Colloquium Geographicum 5, Bonn 1956.

(٢) O. Menghin, Weltgeschichte der Steinzeit, Wien 1931, 612; H.v. Wißmann. Das gleichzeitige Ausblühen der Philosophie zwischen China und Griechenland. Universitas 1, 1946, 461 f.; E. Rousselle, Begegnung von Morgen- und Abendland (Rundfunk Frankfurt 1947) Saculum 2, 1951, 321-339; K. Jaspers, Vom Ursprung und Ziel der Geschichte, München 1949; O. Köhler, in: Saeculum 1, 1950, 477-486.

إننا نجد في الديانات التوحيدية، في تبشير زرادشت وفي نبؤات اليهود، كما نجد لاحقاً في المسيحية والإسلام في المشرق وتلقيهم الوحي غالباً في الصحراء؛ إننا نجد في ذلك كله انعكاساً للانعتاق من أشكال الحياة المختلفة في المشرق. ولاسم زرادشت دلالة خاصة إذ يعني حرفياً «مالك النوق الجيدة» إلا أن تبشيره المبكر قد بارك الفلاحة الحرة في أرض زراعية. أما أنبياء الشتات البابلي فقد نعوا الأضرار التي لحقت بالمدينة الكبيرة وأبدوا حنينهم تجاه فلسطين، التي كانت «قبيلة» وأرضاً زراعية خفيفة وسط مصر وبلاد الرافدين، بل أرضاً ممزقة. وقد تكون هذه النكبة المثمرة سبباً في ظهور التوحيد بألوانه المتعددة.

لن نتابع هنا كيف استطاعت فتوحات الاسكندر، وكيف استطاع الحكم الروماني أو الهللينية أن تدخل المشرق في احتكاك مباشر مع المدينة اليونانية (Polis) أن تدخل نوعاً من التفتح أو التلطيف من شكل الحياة في المدن القائمة على الجانب الشرقي من المتوسط[1]. نكتفي بالتذكير الآن كيف كان العبرانيون منتشرين في فلسطين ولا سيما في الجليل زمن السيد المسيح إلى جانب الآراميين واليونانيين، وكيف أدى الاختراق الكبير للأخرويات المتمثل بصلب السيد المسيح إلى انقراض روح النبوة اليهودية التي تعزل الدين اليهودي داخل المملكة الرومانية وإلى افتراض الروح اليونانية أيضاً بمثابة تربة خصبة لما جرى.

يمثل الموقع الجغرافي لمدينة مكة، مسقط رأس الرسول موقعاً له هالة تأثير على الوضعية التي اتخذها الإسلام، الذي يعتبر مسؤولاً عن توحيد المشرق وعن انفصاله الحاد عن أوروبا. تقع مكة وسط وادٍ نصف صحراوي يمتاز بمناخه الحار. تهب عليها رياح تحمل الأمطار الخفيفة آتية من المرتفعات الجنوبية الغربية في شبه الجزيرة، ورياح الشواطىء الصحراوية الرطبة الآتية من البحر الأحمر. هذا مع العلم أن الشعاب المرجانية في هذا الجزء هي مما يعيق إبحار السفن قدماً. ثمة ممر سهل العبور يوصل إلى الجبهة الشمالية الشرقية من مكة ما بين الجبال المحيطة باتجاه الداخل. وإذا ما قارنا بين الأخبار التي وصلتنا من مصادر حبشية مع مثيلاتها عند بطليموس، نعلم أنَّ هذه المنطقة كانت حوالي المئة الأولى بعد الميلاد، وبعد أن كانت قد اكتسبت سمعة سيئة بسبب القرصنة البحرية التي مارستها قد أصبحت مجدداً مرفئاً للمراكب الآتية من الحبشة. أما

(١) G.E.v. Grunebaum, The Moslim Town and the Hellenistic Town. Scientica 1955, 364-370.

المركز الأساسي في هذه المنطقة فكان في «زبرم» وهو الآن مرسى ابراهيم، إذ كان مرفأ الواحة المعروفة باسم اللّيث والواقعة إلى الجنوب من مكة، وهي أولى الواحات البحرية التي تصادفنا إذا ما وصلنا من جهة الشمال. لقد حدد بطليموس «ماكورابا» مكاناً في الداخل دون أن يشدد عليه[١]. تشير التسمية إلى وجود مكان مقدس وبالتالي إلى وجود الملجأ الآمن الذي باستطاعة القبائل المجاورة أن تقيم فيه أسواقها بأمان. لقد كانت مكة وبكل تأكيد أكبر المقدسات بالنسبة للبدو ولأنصاف البدو. وبداخلها يوجد الحجر المقدس الذي كان موضع تكريم. أما ثاني المقدسات وكان إلى الجنوب والذي كان مكرماً من قبل العديد من الفلاحين الجبليين والقبائل نصف البدوية في ما يعرف اليوم بعسير، فكان «الحجر الأبيض» الكعبة، كعبة العبلات على المرتفعات الواقعة جنوب غرب تبالة، حيث ثمة إلهٌ يعرف بـ «ذي الخُلَصَة» يصار إلى تقديسه[٢]. إن ما ورد عند بطليموس هو الإشارة الوحيدة المعروفة عن مكة فيما قبل ظهور الإسلام. كذلك لم تكن طريق التوابل بين نجران ويثرب، التي عرفت لاحقاً باسم المدينة طريقاً معروفة. قد تكون هذه الطريق أو أحد فروعها هي الطريق التي تمر عبر قرن المنازل (السايلة) الواقعة خلال الممرات الجبلية إلى الشمال من مكة وعبر وادي فاطمة، وهي سلسلة من الواحات الواقعة أيضاً إلى الشمال من مكة. هذا يعني أنَّ مكة كانت الطريق الأطول. منذ القرن الرابع انحسرت في جنوب شبه الجزيرة العربية الديانة الرسمية القائمة على عبادة النجوم والتي وصلتها بطريقة تلفيقية تحت تأثير منطقة البحر المتوسط، كما أن الحروب بين

(١) تبدو ماكورابا في خريطة بطليموس واحدة من أماكن متعددة من المناطق الداخلية. ووصفها لا يتحدد إلا من الداخل إذا كان للاسم من دلالة لشأن مقدس أو لسوق يخص البدو (والفلاحين)، وقد وضع بحماية ملجأ آمن منذ القرن الأول بعد الميلاد، فإن هذا لم يكتسب دلالة تذكر قبل القرن السادس، كما يعتقد العديد من المؤرخين. بالمقارنة مع طريق التوابل بإمكاننا التفكير بالمدينة التي تعرف بالطائف، وهي مدينة واحة إلى الشرق من مكة، وعلى سفح جبل خاصة إذا ما أعدنا إلى الأذهان ما ورد في السورة ٤٣ (سورة الزخرف) من اشارة إلى القريتين. والطائف واحة عند اقدام الجبال. وبعض سكانها فلاحون حتى الآن. لا بد أن تكون طريق التوابل قد مرت عبر الطائف إلى عكاظ وإلى قرن المنازل ومن هنالك باتجاه يثرب غرباً أو باتجاه حراء شرقاً. أو ربما كانت في الاتجاهين. راجع:

(Vgl. H. Philby, Fourty Years in the Wilderness, London 1957, 150 f.; H. Lammens, La cité de Tâif à la veille de l'hégire, Mélanges Fac. Or. Beyrout 8, 115-327). Vgl. auch H.v. Wißmann, De Mari Erythraeo, Lautensach-Festschrift, Stuttgarter Georger. Stud. 69, 1957, 289-324.

(٢) J. Wellhausen, Reste arabischen Heidentums, 2.A. 1897; L. Forrer a.a.O. 207, 217ff. العبلات (العبلاء) هي ما ذكره بطليموس تحت اسم الابنوي والذين كانوا كما يظهر في اللائحة التي ذكرها في هذه المنطقة. قرن المنازل هي كارنا كما ترد عنده.

المسيحيين واليهود قد أنهكت هذه الأراضي. وحوالي القرن الرابع بعد الميلاد أصبحت منطقة مكة على الأرجح خاضعة للملكة السبئية الحميرية في الجنوب من الجزيرة، وربما أصبحت أيضاً جزءًا من مملكة كندة، إحدى الممالك التابعة للجنوب والتي تأسست في ما يعرف اليوم بمنطقة نجد. إبان فترة التدخل الحبشية الثانية (٥٢٤/٥) خسرت مناطق جنوب شبه الجزيرة استقلاليتها. وتبعاً لما جاء في بعض النقوش[١]، قام أبرهة، أحد ملوك جنوب الجزيرة بأربع حملات عسكرية (رابعها عام ٥٥٣)، ضد التحالف القبلي البدوي المكون من مَعَدّ والذي امتد نفوذه من الشاطىء إلى الغرب من مكة حتى داخل شبه الجزيرة والذي أخضع مملكة الحيرة في شمال شرق الجزيرة العربية على الفرات لسيطرته، وكانت الحيرة تقف إلى جانب الفرس. لم يرد اسم مكة في هذا النقش، ولكن علينا أن نفترض أنه كان لها قسط وافر من التأثير وسط هذا التحالف البدوي القائم وموقعها هذا وسط التحالف هو الذي جعل منها مركزاً تجارياً بالغ الأهمية. وعلى ما يظهر فقد عرفت مكة آنذاك كيف تجعل من نفسها، وسط خصام القبائل المتعددة، جماعةً دينية متوحدة[٢]. ومما يستقى من القرآن الكريم (السورة ١٠٥ ـ الفيل) نجد أن أبرهة قد قام بغزو فاشل استهدف مدينة مكة بشكل خاص. أما الطريق التي سلكتها هذه الحملة وهي ما يعرف «بطريق الفيل» والتي ينسب شقها إلى الملك الذي قام عام ٤٠٠ بعد الميلاد بضم وسط الجزيرة إلى جنوبها (أسعد الكامل = أبي كرب أسعد) فهي الطريق التي انطلقت من المرتفعات الجنوبية الغربية في شبه الجزيرة لتتصل عند تبالة مع ما كان يعرف بطريق التوابل. عام ٥٧٥ خضعت مناطق جنوب شبه الجزيرة العربية لحكم الفرس وأصبحت بذلك جزءًا تابعاً للدولة الساسانية.

تقع مكة في منطقة لا واحات فيها وسط مجالات ضيقة مكونة من وديان وشعاب يغلب عليها الطقس الحار، طقس الوديان الصحراوية المنخفضة، ولا آبار ثابتة فيها كذلك فهي عرضة للسيول التي تنحدر إليها من الجبال الواقعة إلى الشرق منها. ولتأمين

---

(١) Inschr. «Ry 506» in: G. Ryckmans, Le Muséon 66, 1953, 275-284; J. Ryckmans, ebd., 339-342; ders., La persécution des Chrétiens Himyarites. Nederl. Hist-Archaeol. Inst. Istanbul 1, 1956; W. Caskel, Geistesw. H. 30, 1954; A.F.L. Beeston, Notes on the Muraighan Inscription. Bull. School Or. Afr. Stud. 16, 1954, 389 ff. Uber die «Straße des Elefanten» vgl. H. Philby, Arabian Highlands, Ithaca (Cornell) 1952.

(٢) Vgl. W. Caskel, Die Bedeutung der Beduinen für die Geschichte der Araber. Arbeitsgem. f. Forschg. d. Landes Nordrhein-Westf. H.8, 1952. W. Mont-gomery Watt, in: BADW, Enc. Isl. 2. Aufl. I, 889 ff. في الوقت نفسه «غزاةً» و «تجاراً»

حاجياتها فهي مدينة للبدو القاطنين في المحيط، وللفلاحين المقيمين على المرتفعات الجبلية. أما الأثر المركزي الوحيد الذي تستند إليه مكة، فهو يقوم حصراً على قداسة الحجر (النيزكي) الموجود فيها، وعلى الهدنة المؤقتة لتأدية الشعائر في هذه الأرض التي تسودها الفوضى مما يجعل من مكة سوقاً تجارية هامة. لقد دفع هذا السوق التجاري لإقامة علاقات ديبلوماسية واستطاع بذلك أن يستفيد من الوضع الكبير الممتاز القائم على الاستقلالية بين القوى الكبيرة المتحاربة تماماً كما كانت تدمر في القرن الثالث.

لقد كانت مكة بموقعها حصناً صغيراً، يديره أشراف ارستقراطيتها التجارية. وقد تحولت إلى جمهورية تجارية تديرها قبيلة واحدة هي قريش والتي كانت تمارس باستقلالية تامة وبذكاء شديد سياسة التجارة، الأمر الذي أوصلها إلى اقتناء ثروات كبيرة. كانت تجارتها تشمل كل الأعمال من المضاربات إلى الديون إلى تجميع رؤوس الأموال. لقد استطاعت إقامة علاقات تجارية والتعامل بحرّية مع جيرانها كباراً وصغاراً، ليس مع «قيصر وخسرو»، في شرق بيزنطة وبلاد فارس وحسب، بل أيضاً مع دولتي الغساسنة والحيرة وكانتا تابعتين للروم وللفرس، ومع سائر القبائل البدوية. واستناداً إلى ديبلوماسيتها أرسلت قوافلها المسلحة عبر كل الطرق، باتجاه سوريا الخاضعة لشرق بلاد الروم وإلى حدود جنوب شبه الجزيرة العربية التي أصبحت تابعة لبلاد الفرس. وإلى جانب تصدير منتوجاتها وموادها كانت تقوم بأعمال الترانزيت لبضائع جد مكلفة، حاملة إياها ما بين البحر المتوسط (غزة) وسوريا من جهة وما بين جنوب الجزيرة والهند من جهة ثانية. وفي ما يخص التجارة البحرية، اعتمدت مكة وبشكل غريب نادر على البواخر الحبشية: أما المكان الذي استخدمته مرفئاً لذلك فهو يقع على بعد ٧٠ كلم ما بين رابغ واللّيث على شاطىء خطرٍ تكسوه الشعاب المرجانية.

نشير مجدداً إلى الحالة الثقافية والسياسية التي سادت آنذاك في هذه المنطقة المجاورة لمكة: ففي معظم البلدان المحيطة نجد أقاليم اشتهرت بقدم ثقافتها. ففي الشرق وبشكل نصف دائري يمتد من بلاد ما بين النهرين حتى المناطق المجاورة في شبه الجزيرة والغنية بسكانها نجد أثراً للزرادشتية التي سادت في الدولة الفارسية، وقد أخذت الحيرة وهي من القبائل نصف البدوية والتي كانت مملكة ثابتة للفرس بالدين المسيحي على المذهب النسطوري، وفي الجزء الغربي من نصف الدائرة المشار إليها سادت المسيحية القائلة بالطبيعة الواحدة في المسيح، وفي الجزء السوري والمصري من القسم الشرقي لدولة الروم مع دولة الغساسنة العربية البدوية التابعة للروم أيضاً وحتى دولة الحبشة جنوباً انتشرت الأقليات اليهودية. وإلى ذلك نجد أيضاً جماعات يهودية في يثرب وفي

الواحات الشمالية الغربية من الجزيرة. كانت الحبشة وسيطاً بين مصر والهند وكانت القوة البحرية الأولى في البحر الأحمر. أحاطت هذه المنطقة بما تمتاز من حضارة قديمة بهذه البلدان الفقيرة المغلقة على الخارج والتي لا تعرف إلا القوافل التجارية وبعض أعمال القرصنة. وباستثناء يثرب، الواحة الصغيرة، كان معظم أرجاء هذه المناطق مسرحاً للبدو. سادت في هذه المناطق البدوية عبادة عدد كبير من الآلهة. وقد اصطدمت العبادات المعروفة هنا، وهي عبادات بدائية غير مكتوبة بالديانات التوحيدية القديمة بما فيها من تقاليد وشعائر معقدة. تقع المدينة المقدسة مكة وسط هذه المنطقة التي تمتاز بثقافاتها البعيدة غير المنظمة والمستقلة. إلا أنَّ الدول القديمة المعروفة بحضاراتها قد استعانت ببدو هذه المنطقة لتشكل منهم خيرة فرقها الخيالة ولتقاتل بواسطتهم.

وسط هذا الموقع الصحراوي الخالي من الواحات، وفي مدينة ـ دولة مقدسة يحكمها تجار من قبيلة قريش، وهي مدينة اعتمدت على استجابة العالم البدوي المحيط بها، نشأ النبي محمد فقيراً، فاقداً أهله منذ طفولته، ابناً لعشيرة مرموقة، وإن لم تكن غنية، وقد ظل فقيراً إلى أنْ تزوج من أرملة ميسورة تقوم بالأعمال التجارية، وبذلك استطاع أن ينتقل هو نفسه إلى مصاف التجار.

إنَّ البيئة المتوترة التي سادت حول الجزيرة العربية من مجتمعات فلاحية وتصارعها مع ديانات قديمة، كانت موضع رفض من قبل بدو الصحارى. إلا أنه كان لا بد للأعمال التجارية التي مارستها مكة مع البلدان البعيدة أن تترك اشعاعها ـ مسألة العبودية مثلاً ـ خاصة بالنسبة لإنسان كالنبي الذي عرف العوز، والذي أذهلته أوضار الثروات التي تدرها الأعمال التجارية. ولا بد أن يكون قد تأثر مبكراً بالاعتقادات الإيمانية، وبالنبوات التي تبشر بإله واحد وباليوم الآخِر وبالحساب. وفي الأربعين من عمره تلقى الرسول ـ إبان اختلائه ليلاً في غاريقع على كتف واد صحراوي محيط بمكة(١) ـ وحياً يدعو إلى الإيمان بالله وبالعالم الأخروي. في مرحلة لاحقة من نزول الوحي نجد بعض ما شابه فيه النبي محمد «أهل الكتاب» من اليهود والمسيحيين، علماً أنه قد عبر عن ذلك عبر صور كانت أشبه بالرؤى. ثم إنه اعتبر نفسه آخر الأنبياء بعد السيد المسيح. بعد هجرته عام ٦٢٢ مع جماعته الصغيرة من مكة إلى المدينة الواحة يثرب، حيث اكتسب مؤيدين جدداً لدعوته. ظهرت قدراته على تأسيس دولة باعتباره موحداً للفئات الوثنية المتنافرة في المدينة، ومعهم استطاع بعد ذلك مباشرة غزواته على تجار القوافل

(١) نجد شجرة «السدر (سورة النجم) في الأودية المحيطة بمكة حيث نجد الينابيع أيضاً.

القادمة من مكة وبذلك اكتسب مساعدة مطردة من قبل القبائل البدوية المختلفة التي انضمت إليه. وبطرده للجماعات اليهودية المتواجدة منذ وقت قديم في يثرب أو بقضائه عليهم جزئياً[١]، تخطى النبي محمد، كما في حالات أخرى وباعتبار نفسه زعيماً لجماعة المسلمين، القوانين العرفية عند البدو وعند القبائل التي تعيش في الواحات. أما خيبر وهي واحة يقطنها اليهود فقد ترك لها مقابل جزية معينة حرية معتقدها، وأملاكها واستقلاليتها الداخلية، وهذا ما يعتبر هاماً نسبة لما سيحصل فيما بعد بخصوص تعامل المسلمين مع الفئات التي ستخضع لهم، والتي ستعرف باسم «أهل الكتاب».

عام ٦٣٠ استطاع النبي أنّ يحتل مكة التي رأت ما آلت إليه تجارتها من تهديد. ثمة جزء كبير من الارستقراطية التجارية قد رأى أنَّ تحالفه مع الرسول لن يلحق الضرر بتجارته ولن يشكل قطيعة مع حياته التجارية. تشكلت مبادىء القداسة بالنسبة للنبي من المعطيات التي تحدرت إليه من ابراهيم وابنه اسماعيل، وهي معطيات تقول بالإيمان الخالص بإله واحد: هكذا بدأت العقائد الجديدة تطهراً من تعدد آلهةٍ أساء استخدام المقدس. تعزز هذا الإيمان بعد أن دعا النبي للعودة لعبادة إله واحد متبعاً خطى ابراهيم جاعلاً منه واسطة عقد الإيمان الجديد، وبعد أن قام بقلب الحج الوثني إلى مكة ليجعل من الحج تعبداً مسلماً صافياً، مما نزع عن الحج القديم صفة اللقاء التجاري، وبعد أن استطاع استيعاب بعض الممارسات والشعائر والعادات التي لم تكن لتفسر التفسير الكافي[٢]. لعب الحج إلى مكة وهي فريضة عزيزة على كل مسلم دوراً بالغاً في التاريخ إذ أسهم في الحفاظ على تماسك البلدان الإسلامية. إلى جانب ذلك نضيف بساطة المعتقد الذي تم التبشير به بلغة عربية ودون تعقيدات رجال الكهنوت، وهذا ما أتاح أيضاً تنظيم شؤون الحياة اليومية والسنوية، إن هذا كله قد سهل للبدو الدخول

(١) ربما أقامت القبائل اليهودية منذ القديم في يثرب. وكان لليهود أيضاً قرى قديمة عدا يثرب وخيبر، في واحة تيماء، العلا، وفدك. وقد أظهر نقش اكتشف حديثاً أن هذه الأماكن قد تم فتحها من قبل نبونيد الذي جعل من تيماء عاصمةً لمملكته راجع:

C.J. Gadd, The Kingdom of Nabuna'id in Arabia. Akten 24. Internat. Orientalisten-Kongress München 1957 [1959], 132 ff.; ders., in: Anatolian Studies 8, 1958 glaubt, daß die Besiedlung durch Juden schon damals erfolgte. Vgl. jedoch W. Caskel, Die alten semitischen Gottheiten in Arabien. Univ. di Roma, Studi Semitici 1, Le antiche divinità Semitiche, Rom 1958, 95-117.

(٢) C. Snouck Hurgronje, Het Mekkaansche Feest. Verspreide Geschriften I, Bonn 1923; C. Rathjens, Diie Pilgerfahrt nach Mekka, Hamburg 1948; R. Paret, Mohammed und der Koran, Urban-Bücher 32, Stuttgart 1957.

المريح في الدين الجديد، كما سهل أيضاً الاشتراك في النقاش حول مسائل الدولة [دولة الله].

بعد اندلاع نار الحروب بين بلاد فارس وبلاد الروم، واحتلال سوريا أول الأمر ثم مصر وآسيا الصغرى من قبل الفرس واندفاعهم حتى أسوار بيزنطة، ثم ما أعقبه من اندفاع الروم واختراقهم لحصارات الفرس وصولاً إلى عاصمتهم المدائن (٦٢٧) ومقتل خسرو الثاني ـ بعد ذلك بدأت في بلاد فارس نزاعات استنزاف أدت إلى تحالف الممالك التي كانت تأتمر بأمر الفرس في جنوب شبه الجزيرة العربية مع النبي[١]، وهذا ما سهل تحول جنوب شبه الجزيرة العربية ـ لا سيما اليمن ـ إلى الدخول في الدين الجديد. لقد شكل هذا التحالف دون شك كسباً كبيراً زاد النبي نفوذاً وحظوة، إذ إنَّ جنوب شبه الجزيرة كان قد تحول وحتى حدود العام ٥٧٥ دولة كبرى يُخشى جانبها: لقد كانت بالنسبة لمكة الأرض الجارة التي تمتاز بحضارة قديمة. ربما تمت صياغة هذا التحالف قبل «عام الوفود» أو بعده، وهو العام الذي تلا مباشرة أخذ النبي لمكة (٦٣٠/٣١) وفيه أيضاً عقد النبي معاهدات مع القبائل في كافة أرجاء الجزيرة العربية.

لقد أصبحت الجزيرة العربية في قلب الصحراء، وليس وسط الأرض الزراعية في جنوب شبه الجزيرة، مركزاً للسلطة، وبدل الأسياد الاقطاعيين، وبدل القبائل الفلاحية في مرتفعات الجبال أو في المدن الصغيرة كما كان الحال في مملكة جنوب شبه الجزيرة العربية إبان مرحلتها الأخيرة كدولة كبيرة، حل الآن نظام آخر مكون من ارستقراطية عمادها سكان المدن الواحات في قلب الصحراء العربية، وهي ارستقراطية تتحدر من عشائر نصف بدوية تميزت بموهبة حسنة في القيادة والزعامة. استطاعت هذه الزعامة بعد وفاة الرسول أن تتولى تنفيذ وصاياه وتعاليمه المفروضة وأن تتولى الحكم والسلطة وأن تعزز قوتها بوعي البدوي المأخوذ بنشوة الانتصار. فلأول مرة في التاريخ يتحالف الإيمان الديني مع الرغبة في السيطرة عند شعب بدوي.

توفي النبي محمد عام ٦٣٢ في يثرب. وقد سميت هذه المدينة بمدينة الرسول، أو المدينة باختصار، وكانت المدينة أول عاصمة للخلافة.

بعد أنْ أنهكت الحروب القائمة بين الفرس وبين الروم كلا الفريقين أصبحت

(١) W. Montgomery Watt, Muhammad at Medina, Oxford 1956, 128-130; ders., Al-Aswad, Encycl. Isl. 2.Aufl. (engl.) I, 728; L. Caetani, Annali dell'Islam a. 10 H. L. Forrer a.a.O. 5 f.

الفتوحات العربية السريعة بعد هذه الفوضى أمراً يمكن فهمه. انطلقت هذه الفتوحات من الجزيرة العربية بعد وفاة الرسول مباشرة، ثم استطاعت الخلافة الأولى وإبان حقبة لا تتعدى العشرين سنة (٦٣٣ ـ ٦٥١) أنْ تمد نفوذها إلى المناطق الجافة بين طرابلس غرباً وخراسان (في شمال شرق بلاد فارس) شرقاً. بعد هذه الفتوحات لا سيما بعد فتح مصر اندمج قسم كبير من العشائر الفلاحية من مناطق اليمن في جنوب الجزيرة وهي مناطق جد مأهولة وقد تحولت إلى البداوة، مع الجند البدوي. وبحدود العام ٧١٥ استطاعت الخلافة أن تؤسس ملكاً امتد من المحيط الأطلسي في إسبانيا والمغرب والهند وجاكارتا شرقاً، أي كل ما يعرف الآن بالمشرق الإسلامي.

إذا ما افتكرنا أنَّ دولة الرسول هذه قد افتقرت إلى الخبرة في قيادتها للمناطق التي اخضعت لها ـ نذكر هنا بأن تمرد اليمن قد توقف بمجرد ابتداء الفتوحات الكبيرة ـ فإنّه كان لحكمة الخلفاء الأُوَل في إدارة المناطق المفتوحة الدور الأول. فالمعروف أنّ مدن ومناطق فارس ومدن ومناطق شرق مملكة الروم كانت تدار ومنذ زمن طويل عبر جهاز إداري. وببطء تحالفت خبرات هذا الجهاز الإداري مع ما يتميز به من نمط حياة وقد تطبع بالإيمان الجديد وأخذ بلغة القرآن، اللغة العربية التي أصبحت لغة الدولة، تحالف مع دولة الخلافة. أما المشاحنات مع الأفكار المسيحية واليونانية والتي ظلت على قوتها على مدى قرون خمسة، فقد تم استيعابها من قبل الأوساط السنية، الأمر الذي قلل من تأثيرها. خاصة ما لم يكن من هذه الأفكار ذا تأثير على الرياضيات والعلوم الطبيعية والطب والتقنيات أي على العلوم التي عرفت ازدهاراً مرموقاً. أما التأثيرات الماورائية فقد وجدت أثراً لها في التصوف، وهذا ما نلمسه بجلاء في إصلاحات الغزالي: كذلك كان لتعبيرات هذه الأفكار أثر في الخلافات التي قامت بين الفرق على اختلافها، وحيث أدت هذه الخلافات إلى قيام تمردات فلاحية كان يصار إلى قمعها بشدة. وبانتقال الخلافة وتغير العاصمة من المدينة ثم إلى دمشق فبغداد، وبالتحول من دولة محاربة قوامها البدو وفلاحو الواحات إلى دولة قمعية عالمية كالدولة العباسية مع ما تقوم به من تجارة ومع ما فيها من صناعات وحرف وما يسودها من حياة فكرية، أصبح موقع الاقتصاد الريعي المديني وحتى بالمقارنة مع مثيله في العصور ما قبل الهللينية اقتصاداً أقوى وأشد. فإلى جانب الدولة وإلى جانب سكان المدن دخل الآن عنصر جديد، عنصر العسكر صاحب السلطة، الذي مدَّ حروبه ومشاحناته إلى قلب المناطق التي تشكل الدولة العباسية الآخذة بالتساقط. لقد ظهروا باعتبارهم ممثلين لنمط حياة يتشكل من فئات فلاّحية في

الواحات الكبرى؛ وفي مصر[١] بدأ زمن الفاطميين (٩٦٩ ـ ١١٧١) مع صعود العسكر وتفوقهم إلى جانب الحكّام والموظفين والأوقاف الدينية وأبناء المدن.

لقد عاشت مكة حتى ما قبل عصر النبوة خارج إطار الحياة الفلاحية وعبر مشاحنات ديبلوماسية مستمرة بين ما تمخض عن البداوة من مدينة، وبين ما يقوم به البدو من ممارسة للتجارة. ولقد كان مبدأ النَسَبِ قوياً فيها. وكان وعي البدوي قوياً شديد الارتباط بالانتماء لعشيرته ولقومه. بل إن الخليفة عمر بن الخطاب قد قال فيما روي عنه «تعلموا من أنسابكم، ما تصلون به أرحامكم. ولا تكونوا كالأعاجم إذا سُئلوا عن أنسابهم انتسبوا إلى هذا المكان أو ذاك». ولقد ظلت القصيدة لدى العرب المُغرَمين بالصيد، الشكل الشعري البارز ما قبل الإسلام، سائدةً في الإسلام أيضاً. وأظهر الحكام الأمويون ولعاً خاصاً بالصيد في الصحراء، حيث بنوا قصوراً خاصة تشبه من حيث زخرفتها قصور الساسانيين والفنون القديمة الأخرى.

صحيح أنَّ المدينة قد ضمت شريحةً فلاحية مستقلة إلا أنَّ الأوساط الحاكمة والمسيطرة قد عبرت عن احتقارها لهذه الفئة ولهذا الشكل من الحياة طالما أنه يمارس من قبل البدو. وقد روي عن النبي ما معناه فيما يخص المحراث، أنه آلة لا تكون في يد مؤمن ما لم يكن الظرف ظرف عبودية. ثم إننا نجد في القرآن الكريم (السورة ٦/النحل) آيات تمتدح الرعاة. هذا مع العلم أن نمو المحاصيل لا يظهر من آيات القرآن باعتباره نتاج عمل وجهد إنسانيين، بل هو هبة وهدية منه تعالى.

لقد أدت الفتوحات الكبيرة إلى إلحاق بعض الخسائر بالحياة الفلاحية إلا أنها كانت خسائر قليلة بالمقارنة مع الانهيار الذي أصابها في القرون اللاحقة. فاليمن رأت نفسها تشارك في الجهاد بواسطة أُناس تخلوا عن كل العمل في الأرض. لقد شارك معظمهم في فتح مصر. هذا مع العلم أنه حتى في فترة ما قبل الإسلام كان محيط اليمن الصحراوي وحضرموت قد أصابهما الضعف بسبب عبث البدو. وكان عليها أنْ تتخلى بعد خراب سد مأرب، العاصمة القديمة، عن العديد من الواحات. ومع ذلك فإنه لم يعد للهجرة من المرتفعات الكثيفة السكان من أثر على الحياة الفلاحية. وفي مصر وسوريا وبلاد ما بين النهرين كانت حياة الجيوش التي تنزل معسكرات مصنوعة من

(١) C.H. Becker, Egypten. Enzyklopädie d. Islam, 1. Aufl., 2, 1927. Im folgenden werden eine Reihe von Artikeln der Enzylopädie des Islam, 1. Aufl. und 2. Aufl. (Bd. 1), nicht eigens genannt.

الخيام وقفاً على ما يرد من جزية ومن خراج. وكانت معظم معسكرات الجيوش مقسمة أحياءً تبعاً للقبائل التي تنتمي إليها. من هذه المعسكرات البصرة والكوفة عند أطراف الأراضي الزراعية الخصبة في العراق وما يليها وما يحاذيها من صحراء. وفي مصر كانت الفسطاط (القاهرة القديمة) المعسكر الأهم. أما القيروان في شمال غرب إفريقيا (تونس) فكانت منذ البداية مدينة مسورة. وكما هو الحال بالنسبة لهذه المعسكرات الإسلامية، كانت الحيرة نموذجاً سابقاً على الكوفة. وقد أظهر المخطط الذي قدمه أ.ر. غوست (A.R. Guest) لمدينة الفسطاط وجود ٤٦ حياً قبلياً، منها ١٠ على الأقل لقبائل فلاحية نزحت من المرتفعات الجبلية اليمينة. لقد ظلت المرتفعات الجبلية الوعرة، كما هو الحال في لبنان وفي شمال غرب إفريقيا، موطن البربر، ظلت أول الأمر خارج منطقة الفتوحات الإسلامية، وعلى امتداد الحدود الخارجية لدولة الخلافة وعلى الثغور البحرية قامت الحصون التي عرفت بالأربطة (ج. رباط)[١]. وهي أبراج يقطنها مدافعون متطوعون، وقد تحول بعض هذه الأربطة إلى مدن. فيما بعد أُطلق اسم الرباط على البناء الذي يشبه الدير (الخانقاه؟) حيث كان ينزل الصوفية ويقيمون شعائرهم[٢].

بالرغم من الأهمية التي اكتسبها البدوي في الحروب المقدسة، فقد ظلت نظرة المديني إليه نظرة تنقصها الثقة. وقد جاء في السورة التاسعة (التوبة/٩٧) من القرآن القول: ﴿الأعراب أشد كفراً ونفاقاً. . .﴾. ولم تكن الفرائض الدينية الموضوعة تمارس ممارسة صحيحة خارج المدينة. فالصلاة الجامعة، خاصة صلاة الجمعة يجب أن تقام في منزل، في مسجد، إنها من جملة الشعائر التي فُصِّلت على قياس المدينة. والبدوي كان قاصراً عن ممارسة كل الفرائض الموضوعة.

وبعد أن فقد المحارب البدوي العربي أهميته في الدولة العباسية وبعد أن تزايدت أهمية العنصر الفارسي، والبربر وبعد أن أسس الحكام فرقاً عسكرية دائمة، سرعان ما أصبح المرتزقة فيها عمادها الأول، أصبح التناقض بين البدوي والحضري تناقضاً أشد حدة. كما أن خطر تخريب المدينة أو الواحة من قبل البدو الغزاة للأرض الزراعية، أو من قبل مافيات البدو قد أصبح خطراً محدقاً عند كل تراخٍ في السلطة وعند حدوث أي نوع من أنواع الفوضى. ففي زمن الخليفة العباسي المأمون (٨٦٨ ـ ٨٨٣) قامت بعض أعمال التمرد اليائسة في مصر وقد قام بها الفلاحون الذين كانوا لا يزالون على دينهم

(١) C.H. Becker, Cairo. Enz. Isl., 1. Aufl., 1, 1913.
(٢) G. Marçais, Ribât, ebd., 1. Aufl., 3, 1936.

المسيحي، احتجاجاً على رفع رسوم الخراج الموضوعة. كذلك أدت محاولات الدولة العباسية للاستعانة بالزنج وبالفلاحين لرفع الملوحة من مناطق واقعة في منخفضات بلاد ما بين النهرين إلى قيام حركة تمرد واسعة. وقد استطاع المتمردون الاحتفاظ بالمناطق الواقعة عند ملتقى النهرين لفترةٍ طويلة، إلى أن تمكنت السلطات من قمع هذه الحركة[١]. لقد كان للوضع السيء الذي يعاني منه الفلاحون وللتضخم السكاني في المدن، لا سيما في بغداد، أثره في قيام الحركة الدينية ـ الاجتماعية، حركة القرامطة[٢] التي ابتدأت في هذا الوقت في بلاد الرافدين، وكانت حركة سرية أول الأمر لكنها سرعان ما انتشرت في شتى أرجاء المشرق، إلى أن أسست عام ٨٩٩ دولة لها في شرق الجزيرة العربية. كذلك استطاعت هذه الدولة أن تشكل في القرن العاشر تهديداً للخلافة العباسية في قلب بغداد. أما التمايز الاجتماعي بين الفقراء والأغنياء فقد بلغ ذروته في بغداد[٣] مما أدى بعد العام ٩٤٥ إلى قيام حركات أخوية كالعيارين، وهي حركة يمكن تشبيهها بألمافيا في جزيرة صقلية.

ومن الأمثلة على تحول الأرض الزراعية إلى مراع يجتاحها البدو نسوق ما قام به بنو هلال عام ١٠٥١ إثر غزوهم لما يعرف الآن بتونس.

كانت عسير إلى الجنوب من مكة موطن بني هلال الأول حيث لا تزال إلى الآن بعض عشائرهم هناك، وهم يعيشون حياة شبه بدوية. قبل اندفاعهم إلى تونس أقام بنو هلال في صعيد مصر وحول أسوان مصادرين الأرض الزراعية لتحويلها مراعي لهم. وفي الحقبة نفسها (منذ العام ١٠٥٦ قام جيش بربري إسلامي بتأسيس دولة المرابطين في غرب المغرب. يشير اسم الدولة (المرابطون) من (مرابطة الرجال) إلى قيام هذه الفئة بالدفاع عن الإسلام انطلاقاً من جزيرة في النيجر أو السنغال، وكان زعيمها فقيهاً ثم قاد حركة فكرية ـ عسكرية اجتاحت الصحراء أول الأمر ثم المغرب وأخيراً أسبانيا (الأندلس) حيث نجد جالية إسلامية على جانب كبيرة من الحضارة. أما حركة الموحدين المتزمتة (منذ العام ١١٣٣) فقد قامت في شمال غرب افريقيا ثم في أسبانيا حيث أعلنت الجهاد حتى ضد الطوائف الإسلامية الأخرى، فقد كان موطنها المناطق الجبلية من إقامة

(١) L. Massignon, Zandj, ebd., 1. Aufl., 4, 1934.
(٢) L. Massignon, Karmaten, ebd., 1. Aufl., 2, 1927.
(٣) A.A. Duri, Baghdâd, ebd., 2. Aufl. 1, 1960.

البربر. لقد شكل البدو المسلمون من الأتراك الجيش الذي كان عماد دولة السلاجقة التي اخضعت بحدود العام ١٠٤٨ بلاد فارس وشرق المشرق، والتي أصبحت فيما بعد حامية الخليفة في بغداد وما بين النهرين وسوريا. وفي هذا الوقت ظهر البدو الإيرانيون في بالوشيستان حيث اندفعوا إلى الجانب الجنوبي الشرقي لتبتدىء بذلك الحياة البدوة في هذه المناطق. وهكذا كان القرن الحادي عشر حقبة شهدت حركة بداوة إسلامية جد قوية، استطاعت مصر في ظل الفاطميين الإفلات منها.

وفي الوقت الذي شهدت فيه مصر واليمن والمغرب (شمال غرب افريقيا) حقبة امتازت بالهدوء النسبي (القرن الثالث عشر)، كان شرق المشرق ـ بما في ذلك بلاد ما بين النهرين ـ مسرحاً لغزوات مخيفة قامت بها القبائل غير المسلمة المكونة من المغول الذين أسسوا مملكتهم بقيادة جنكيزخان، أما الغرب فقد نجا من هذه الغزوات بفضل قوة شخصية الظاهر بيبرس[1] الذي اعتلى عرش مصر وبفضل الانتصار الذي تحقق في معركة عين جالوت في فلسطين (١٢٦٠). لقد شهدت معظم المدن الكبيرة في المشرق حركة انحسار كبيرة، وقد دمر أو ضرب المغول عدداً منها؟ بل إن بعضها لم يتعاف اطلاقاً فيما بعد. ومن المدن التي دمرت أو ضربت نذكر: الجوزجان في دلتا آمودريا، بخارى، وسمرقند، بلخ (أو باكتريا القديمة)، مرو، هراة ونيسابور، غزنة وهي في أفغانستان حالياً، لاهور في البنجاب ودلهي، الري إلى الغرب من طهران، وفي طليعة هذه المدن تأتي بغداد. أما في القرن الرابع عشر فقد حصل المزيد من حركات التصحر، وذلك في العهد الذي قاد فيه تيمحدر الدولة المنغولية الإسلامية: في هذه الفترة ضربت مدن دلهي، زرنج في سجستان، أصفهان، بغداد، حلب ودمشق. صحيح أن بعض المدن قد استعادت ازدهارها مثل سمرقند وهراة التي كانت عاصمة الدولة في ظل أبناء تيمور. لكنّ أدت الحقبات العصيبة ما بين القرنين الثاني عشر والخامس عشر أدت إلى تحويل المزيد من الواحات إلى أرضٍ مقفرة لم تستعد فيما بعد حياتها السابقة، جرى ذلك في المناطق التالية: في الأجزاء السفلى من آمد، حول بلخ ومرو ونيسابور في قوهستان، وعلى امتداد نهر هيلمند وصولاً حتى سجستان والبنجاب الذي تحول إلى مسرح معارك طويلة ضد الهند. وأخيراً في الأراضي الخصبة الواقعة في بلاد ما بين النهرين، وبسبب هذا التصحر في بلاد ما بين النهرين فقد المشرق منطقته المركزية. وبعد أن كانت هذه

(١) M. Sobernheim, Baibars, ebd., 1. Aufl., 1, 1913.

المناطق أرض واحات كثيفة السكان تحولت إلى مراعٍ لبعض القبائل البدوية. ثمة عوامل مشتركة كانت سبباً في هذا الاقفار منها تخريب المدن من قبل الجيوش الخيالة، واندفاع البدو المجاورين للنهب وللاستفادة من المراعي إضافة إلى حالة الفلاحين وموقفهم من الحضر. أما القوافل التجارية بين أوروبا والصين فقد تحول القسم الأكبر منها إلى البحر الأسود، حيث كان لجنوى مستعمرات هناك[١]: أما الطريق بين الهند وأوروبا فقد تحولت بشكل كلي عبر مصر. وقد كانت البيوت التجارية في الإسكندرية وهي تابعة للبندقية بالدرجة الأولى بيوتاً وسيطة. ففي العام ١٢١٥/١٦ كان يعيش هناك حوالي ٣٠٠٠ تاجر غربي وكان بإمكانهم السفر إلى القاهرة بالطبع. كذلك أسهمت الظروف بالإبحار عبر النيل حتى قوص ومن ثم مواصلة الطريق براً حتى عيذاب على البحر الأحمر، فتحولت قوص عندها إلى مدينة كبيرة[٢]. كذلك اكتسبت عدن أهمية خاصة. أما زبيد وتعز في اليمن فقد عرفتا الازدهار بوصفهما مركز الدولة الرسولية[٣]. استحوذت التجارة ما بين الهند وفارس على مضيق هرمز، وقد تحول الجانب الشرقي للخليج الفارسي إلى مدينة تجارية حرة[٤] على جانب من الازدهار. وهكذا تخلت بلاد الرافدين عن دورها بعد أن كانت محطة للطرق العالمية.

بنيت مدينة بغداد عام ٧٦٢ لتكون عاصمة الخلافة إلى الغرب من دجلة. ولقد قامت مكان العواصم القديمة القائمة أيضاً عند ضفتي دجلة وهي عواصم الدول القديمة، عواصم السلوقيين والبارتيين والساسانيين، التي تحولت إلى مدن صغيرة، ثم اندثرت فيما بعد. شأن سلوقية قامت بغداد أيضاً وسط أرض واحات تربط ما بين دجلة والفرات. إنها تمثل مملكة لا يمكن مقارنتها إلا مع مملكة الصين إبان عهد أُسرة تانغ. كانت بغداد عاصمة مدورة الشكل مسورة محصنة مشرعة على العالم الخارجي من أربعة أبواب. في زمن هارون الرشيد (٧٨٦ ـ ٨٠٩) كانت بغداد محاطة بالأسوار، واسعة جداً تحيط بدجلة من الجانبين مع جسور ثلاثة على النهر تصل بين جزئي المدينة. وربما كان عدد سكانها في أوج ازدهارها مع بداية القرن العاشر حوالي المليون ونصف المليون نسمة. أما زمن البهويهيين فقد أخذت بغداد تتراجع بقوة. والسور الذي بناه الخليفة

(١) W. Heyd, Geschichte des Levantehandels im Mittelater, Stuttgart 1879.
(٢) J.H. Kramers, Kûs. Enz. Isl., 1. Aufl., 2, 1927.
(٣) A.S. Tritton, Rasûliden, ebd., 1. Aufl., 3, 1936.
(٤) H.v. Wißmann, Arabien und seine kolonialen Ausstrahlungen. Lebensraumfragen europäischer Völker 11, Europas koloniale Ergänzungsräume, 374-488, Leipzig 1941.

عام ١٠٩٥ حول الجزء الشرقي من المدينة ضم منطقة كانت في معظمها خارج الجزء المسور من هذه المدينة عام ٨٦٥ وكان حجمه بنصف حجم السور القديم. ثم إن الجزء الشرقي من المدينة زمن الانحلال الذي تقاطع مع فترات صعود أيضاً، قد ظل ينحدر بانحدار مجرى النهر. ومع ذلك فقد ظلت بغداد وبرغم افتقاد الخليفة لقوته مدينة تجارية على جانب من الأهمية: فقد أشارت المصادر إلى إقامة حوالي ٤٠,٠٠٠ يهودي فيها. بعد ذلك انهار الجزء الغربي من المدينة شيئاً بعد شيء ليصبح أحياء منعزلة، أو مدناً مستقلة معزولة عن بعضها البعض بأسوار أو بحطام وبأراض خربة. أما في الجزء الشرقي من المدينة فلم يبق إلا ما يقارب ثلث مساحتها عامراً وذلك بحدود العام ١٢٢٦. وبعد ذلك وفي عام ١٢٥٨ تلقت بغداد أصعب حمام دم شهدته في تاريخها باحتلال المغول لها. ومع ذلك فقد ظلت بغداد مدينة اقليمية أُعيد إسكانها لتلعب بعض الدور التجاري. أما الجانب الغربي منها فقد تحول أحياءً، فمدناً صغيرة سرعان ما اختفت. بعد العام ١٣٠٠ استعادت هذه المدينة (الجزء الشرقي) بعض نموها. ولكن وفي العام ١٤٠١ قضى تيمور على الجزء الأكبر من سكانها. ففي العام ١٤٣٧ كتب المقريزي عن بغداد واصفاً نكبتها. بغداد قد دُمرت. فلا مساجد فيها ولا مجموعات سكانية، ولا أسواق. والأقنية باتت جافة. وبالكاد يمكن تسمية بغداد مدينة بعد الآن. لقد سيطرت القبائل البدوية على الأرض. ولكن بعد القرن السادس عشر عادت بغداد مدينة. إنها الجانب الشرقي الواقع ضمن الأسوار المشادة عام ١٠٦٥. وفي العام ١٦٥٢ كان سكانها حوالي ١٥٠٠٠ نسمة. ومن العام ١٨٣١ وحتى ١٩٠٤ ارتفع العدد إلى ١٤٥,٠٠٠ نسمة وحتى العام ١٩٥٧ وبعد أن أصبحت عاصمة العراق المنتج للنفط كان عدد السكان حوالي ٧٣٥٠٠٠ نسمة ولا شك أنها ستتطور إلى مدينة يعيش فيها ملايين.

أما المدن الكبيرة الأخرى في بلاد ما بين النهرين المنخفضة فقد عرفت مصيراً مشابهاً لما عرفته بغداد. فالكونة تقع بين دمشق وبين الموقع الذي قامت فيه بغداد. وقد كانت عاصمة الخلافة لفترة ومدينة كبيرة يصعب التحكم فيها. أما واسط فهي الآن عند منعطف مهجور على دجلة، وقد فقدت هاتان المدينتان دورهما. أما ميناء البصرة الذي كان سكانه بحدود العام ٩٠٠ يتراوح بين ٢٠٠,٠٠٠ و٦٠٠,٠٠٠ نسمة فقد انهار بسرعة ليتحول إلى مجرد مدينة صغيرة، مدينة مقاطعة وليتحول بحدود القرن السادس عشر إلى مجرد قناة جانبية لكن الحياة تعود إليه تدريجياً منذ مطالع القرن العشرين.

لقد تحول القسم الأكبر من أراضي الواحات المنخفضة الواقعة على ضفاف دجلة

والفرات والتي عرفت في العصر الإسلامي المبكر ازدهاراً كبيراً، تحولت إلى أراضٍ خربة ولم تتجدد فيها القنوات إلا بعد العام ١٩١٣. وكنقيض حاد لهذا التطور نشير إلى ما حصل في مرتفعات اليمن. فبالرغم من الانقسام المذهبي وما ترتب عنه من حروب ومن مشاحنات تجعل وضع اليمن مشابهاً لوضع ألمانيا إبان القرون الوسطى، ظل اليمن محافظاً وبقوة على مدنه الزراعية الصغيرة مع ما بينها من سكان وعلى الأرجح دون تبادل سكاني بين المزارع والحقول. ونظراً للنقص في المصادر التاريخية فإنه لا يمكننا تتبع سكن العشائر في القرى الجبلية أو على السفوح كما في القرى والكفور المحصنة على المرتفعات. ومع ذلك فإننا نستطيع تتبع بعض التنقلات السكانية لا إلى القرن العاشر وحسب، وهو الوقت الذي وضع فيه الهمذاني الجغرافي، وصفاً لليمن، بل يمكننا تتبع أخبار بعض السدود حتى إلى العصور ما قبل الإسلامية بل إلى القرن الأول بعد الميلاد (النقوش)، وذلك على الرغم من الفتوحات التي قام بها المصريون أو الأتراك ومنها حملة حسن باشا (١٥٨٠ ـ ١٦٠٤) الذي قام باقتحام العديد من القلاع[1].

أما في مصر فقد كان فيضان النيل السنوي على الواحات المحيطة من أسس الحياة الأكثر أماناً، بل أكثر أماناً من نظام الري المعقد السائد في بلاد ما بين النهرين. إلى ذلك استطاعت مصر الافلات من قبضة الحكم المغولي لتشكل ما بين ٩٦٨ و١٥١٧ نظاماً مستقلاً، إذ لم يتوجب عليها أن تؤدي محاصيلها لأي من الحكومات المركزية الخارجية المحيطة بها.

ومع ذلك فلم تعرف الحركة الفلاحية في مصر ومنذ الفتح الإسلامي لها حتى القرن الثامن عشر أية مرحلة من مراحل الازدهار: فعلى العموم كانت هذه الحقبة التي امتدت لألف سنة حقبة انحسار الوضع الزراعي وانحسار الكثافة السكانية الفلاحية عن الأراضي المروية. والوضع هذا غريب فعلاً إذا ما أعدنا إلى الأذهان صعوبة وضع الفلاحين في العهد البيزنطي وإذا ما ذكّرنا بمدى ارتباطهم بالأرض وإذا ما علمنا أن المالكين الكبار كانوا الضامنين للضرائب بين الفلاح وبين النظام البيروقراطي. أدت ضريبة الخراج التي فرضها الإسلام بعد فتحه للأراضي غير الإسلامية إلى تأزيم الوضع. كما أنها منعت الفاتحين البدو من التحول إلى الزراعة؛ لقد كان ذلك مقصوداً إلى حد ما، إذ ساد التخوف من تخلي البدو عن مهاراتهم الحربية بمجرد تحولهم إلى زراعة

(١) H.v. Wißmann, Karte des vorislamischen Arabien. Feldkarte in: A. Grohmann, Die Kultur des antiken Arabien. Handb. d. Altertumswiss. C.H. Beck, München.

الأراضي. أما ما حصل فكان تساقط الأراضي الزراعية المحيطة وتحولها إلى مراعٍ خضعت للبدو المندفعين إليها مما عجل في حركة التعريب. وفي وقت متأخر عما حصل في بلاد ما بين النهرين، ومنذ العهد الفاطمي ظهر في مصر أصحاب الجيوش أو من ينتمون إليها. وبدل الملاك الكبير للأرض ظهر الاقطاع العسكري. وهكذا أصبح السيد الاقطاعي السيد المطلق في مناطق اقطاعه. أما الأراضي غير المروية فقد وقعت في أيدي الحكم. ففي زمن المقريزي (١٣٦٤ ـ ١٤٤٢) كنا نجد الأرض التي تعتبر حكراً للحاكم، إقطاع الأمراء والجنود، والأرض الوقفية، التي غالباً ما تكون توقف لأمور جماعية. وبذلك كان عدد سكان الأرض المصرية المخصصة للزراعة يتناقص مستمر. عام ٩٥٠ كان عدد الضياع بحدود ٢٣٩٥ ضيعة. إما أن يكون عددها قد تضاعف ٤ مرات كما يقول المقريزي بعد الفتوحات العربية فأمر مبالغ فيه. ومع انخفاض عدد السكان انخفض أيضاً عدد الأقاليم الإدارية: بعد ٧٠ أصبح العدد ٥٠ أواخر القرن الحادي عشر، ثم انخفض العدد إلى ٢٦، وإبان العهد العثماني انخفض العدد مرة أخرى ليصبح ١٥ أو ١٢ إقليماً.

إبان القرن الخامس عشر كانت مصر لا تزال الوسيط التجاري بين الهند وأوروبا، وبخاصة مع البندقية. وبعد اندفاع البرتغاليين واكتشافهم لطريق رأس الرجاء الصالح (الكاب) الموصل إلى الهند، أصيبت هذه التجارة بالشلل وخسرت مصر بذلك جزءًا كبيراً من أرباحها. عام ١٥١٧ أصبحت مصر تابعة للحكم العثماني. ومعلوم أن ضعف هذه السلطنة قد أدى إلى إضعاف الحياة الزراعية والحضرية أيضاً ـ وكما هو الحال في كل المراحل التي تسودها الفوضى، كان نصيب القبائل البدوية المحاربة طاغياً على الحياة الزراعية مما أدى إلى تزايد المراعي على حساب الأرض المزروعة.

يبدو أن عدد سكان مصر قد انخفض منذ العصر البيزنطي وحتى عام ١٨٠٠ من ٧ ملايين إلى $\frac{1}{2}$ مليون نسمة. بعد العام ١٨٨٣ عاد العدد وارتفع إلى ما كان تقريباً. حالياً يبلغ عدد سكان مصر ٢٨ مليون نسمة، والعراق ٧,٥ مليون نسمة منهم ٢٠٪ في أربع مدن كبرى (زمن كتابة المقالة هو العام ١٩٦١). في مصر نجد زيادة هائلة في عدد السكان، الأمر الذي قضى بوجود جمهور كبير عاطل عن العمل في الأحياء الفقيرة من كبريات المدن. أما في العراق فإن العدد الضئيل من السكان والذي وجد مجالات عمل له في صناعة النفط، عطل المخططات الموضوعة لاستحداث مشاريع جديدة للري. ثمة تطور جديد دخل معظم بلدان المشرق وفي أوقات مختلفة في شمال افريقيا على سبيل المثال أيام الاستعمار الفرنسي. وفي إيران لا تزيد ملكية الفلاحين من الأراضي الصالحة

للزراعة عن ٥٪ أما ما نسبته ٤٠٪ إلى ٥٠٪ فهو من الأملاك العامة. أما غير المزارعين من الملاكين المدينيين فهم يمتلكون بين ٢٠٪ إلى ٣٠٪. وفي الواحة القريبة من دمشق، نجد أن الملاكين الكبار يمتلكون ما نسبته ٦٠٪ من الأرض الزراعية[١]. في الاتحاد السوفييتي، تم الإصلاح الزراعي بموجب النظام الشيوعي بحيث طغت الشعوب الآتية من مناطق روسية على الطابع الشرقي في المناطق المروية من المشرق. أما في الأجزاء الأخرى من المشرق فإننا قلما نشهد وجوداً لإصلاح زراعي فاعل.

باكتشاف السيارة العابرة للصحراء والطائرة والأسلحة الآلية خسرت القبائل البدوية المحاربة في دول المشرق والتي تقاسمت معظم الأرض، خسرت امكانية مواجهتها لفلاحي الواحات، أو لسكان المدن ولم تعد الحامية لهم تفرض عليهم الإتاوات والخوات: نذكر أيضاً بقلة عدد العشائر. كذلك لم يعد بإمكان البدو الظهور بمظهر الحامي لطرق القوافل التي تعبر الصحراء. وإذا تفكرنا بقدرة الشاحنات على حمل البضائع (بالأطنان ولمسافات طويلة) وإذا عرفنا أن قدرة الشاحنة الواحدة تفوق قدرة ألف جمل، فإنه سيبدو لنا اختفاء سير القوافل المكونة من الجمال، إن في الأرض المنبسطة أو في الشوارع المنتشرة على السفوح والمرتفعات أمراً مفهوماً جداً. بذلك خسر البدو مصدراً هاماً من مصادر الكسب. ولم يتبق للبدو في المناطق الصالحة للرعي إلا إمكانية التحول إلى الزراعة والاعتماد على الزراعة المطرية. كما هو الحال في جنوب روسيا أو في شمال الصين حيث يواجهون بضغط سكاني كثيف عند أطراف منغوليا. أو في داخل الأناضول. وفي سلسلة من المدن وجد البدو أنفسهم تحت اغراء العمل فأصبحوا موظفين في شركات النفط مثلاً. لكن حتى هنا تظل فرص العمل هذه غريبة عنهم كما هي غريبة أيضاً عن السكان الحضر وعن الحرفيين وعن فلاحي الواحات أيضاً[٢]. ترى معظم دول المشرق حالياً، لا سيما منها تلك غير الخاضعة للاستعمار طريق المستقبل في امكانية تحويل البدو إلى سكان حضر. يعتبر تحول البدو إلى مزارعين أو إلى ناقلي مياه الري إلى قطعة من أرض بواسطة وسائل ترعاها الدولة أو تقدمها لهم عبر إقامة نظام لقنوات الري، يعتبر خطوة على جانب كبير من الخطورة، إذ يتوجب عدم المساس اطلاقاً بنظرة البدوي للحياة وللمبادىء الأخلاقية التي يدين بها. وإذا ما تم تحقيق الجهود المبذولة لتحويل البدو إلى سكان حضر فإنه لن يتبقى من أرض في المشرق تروى بالمطر أو

(١) J. Weulersse, Paysans de Syrie et du Proche-Orient. Paris 1946.

(٢) D.E. Totten, Erdöl in Sa'udii-Arabien. -Heidelberger Geographische Arbeiten, H.4, 1959.

من واحة يمكن ريها إلا تحولت أرضاً زراعية. حتى من خلال وضع تصور اقتصادي، ومهما بدت الأفكار الأخرى رومنطيقية إزاءه، علينا أن نرى وحتى في ظل ارتفاع عدد السكان، أن ثمة مساحات واسعة مخصصة للرعي، رعي الأغنام والماعز والإبل، يجب أن تبقى كذلك إذ لا يصحّ أن نتصور أن نظام البدو الغزاة يمكن أن يرتفع بسهولة وبمحض وجود إرادة تفرضه. فبدون اتخاذ الأسباب الوقائية علينا أن نعتبر أن العدوة إلى البداوة ستكون على جانب كبير من الأهمية. ثم إن تأمين الغذاء للبدو قد أصبح صعباً جداً، فالصيد قد شارف نهايته إذ إن الأسلحة الحديثة ووجود السيارات عابرة الصحارى قد أدت إلى انقراض الحيوانات الوحشية بطريقة جد سريعة. كتب فنسنت مونتاي[1] يقول: «إن واقعية التقنوقراطيين ومن خلال وضعها موضع التطبيق في الصحاري وعلى طريق التصنيع، فإنها ستؤدي ما لم تؤخذ الجوانب الإنسانية بعين الاعتبار، إلى الوصول إلى نتائج مهلكة، توازي ما أصاب توطين البدو الكازاخ في الاتحاد السوفييتي. فبحسب الأرقام الرسمية التي عرفناها هنالك والعائدة لما بين الأعوام ١٩٢٩ و١٩٣٣، نجد أن عدد رؤوس الخيل قد انخفض من ٤ ملايين رأس إلى ٤٦٠,٠٠٠ رأساً والأبقار من ٧ ملايين إلى ١,٦٠٠,٠٠٠، والماعز والأغنام من ٢٥ مليون إلى ٢,٧ مليون رأساً. عام ١٩٤٢ جرت محاولات لإعادة تركيز البدو في مناطقهم.

وفي العام ١٩٤٤ كانت المحاولات جارية للبحث عن رعاة وعن مربين للحيوانات يتمتعون بالخبرة. ثمة نصف مليون نسمة من الكازاخ جرى تحويلهم إلى الأعمال الصناعية. وفي العام ١٩٤٧ كتب الجغرافي ب. جورج من هناك قائلاً: «إن حياة البداوة قد ماتت». ثم ردد مونتاي بعد ذلك كلمات تيودور مونود الذي يعتبر أفضل الخبراء العارفين بأحوال الصحراء وناسها[2]. ثمة أمر لافت للأنظار نجده في المحاولات التي بذلها نظام الوصاية البريطاني على أرض الصومال، حيث نجد أن ما يزيد على ٨٥٪ من السكان لا يزالون يمارسون حياة بدوية. إذ جرت مراعاة حفاظ البدو على طريقة

(١) Nomads and Nomadism in the Arid Zone. UNESCO Internat. Social Science Journ. 11, 1959, 481-585, darin: *V. Monteil,* The Evolution and Settling of the Nomads of the Sahara (572-585).

(٢) Th. Monod, Conférence d'études des problèmes sahariens, Dakar, Études régionales 8, Mauretania, 1957; vgl. R.Capot-Rey, Le nomadisme pastoral dans le Sahara Français, Algiers, Inst. des Recherches Sahariennes 1942.

حياتهم حتى من خلال ادخالهم في العلاقات التي تفرضها العصور الحديثة[١]. ـ إن من عليه أن يلقي نظرة على القيم الإنسانية التي ما زالت حية في البدو، والتي ستظل حية فيهم حتى الممات فعليه أن يقرأ كتاب ف. تسيفر[٢] وهو كتاب جيد وجميل في موضوعه.

لم يعد للبدو الغزاة من مستقبل بعد الآن. ومن المؤكد أنه لم يتبق منهم إلا فئات أخيرة تشبه المافيات. من هؤلاء العشائر الملتفة حول الحكم اليمني والتي تقاتل العشائر البدوية الأخرى المتحالفة مع حكم الوصاية البريطاني في عدن، والذين لم يعيشوا بعد الأثر القوي الذي خلفته الثروات المكتسبة من اكتشاف النفط. لم تكن البداوة الغازية ذات يوم «بلاء الإنسانية» وحسب، لقد أنجبت بعض الشخصيات الحاكمة تماماً كما هو الحال بالنسبة للرحلات البحرية، وقد كان لهذه الشخصيات أبعد الأثر في دول أوروبا وآسيا لما لعبته من دور في الأماكن البعيدة وبفضل ما مارسوه من وظائف. أسهمت حركة البداوة العربية بايصال الإسلام وإيصال نظام الخلافة إلى السلطة وقامت بمساعدته على الدوام. إذا ما نظرنا إلى مستقبل البداوة، من زاوية مردوديتها كما هو الحال بالنسبة للمبادىء الأساسية في الاقتصاد الحديث فإنه سيظهر لنا بوضوح أن لا مستقبل لها. فالمشاكل التي تواجهنا هنا مشاكل مشابهة للمشاكل الشائكة التي تواجه حركة الفلاحة الجبلية[٣].

يعتبر دخول المدينة الحديثة إلى مدن المشرق[٤] أمراً لا يمكن تحاشيه على الاطلاق. تماماً كما كان الأمر بالنسبة لمدن الغرب إبان القرون الوسطى. والواقع أن هذه المدينة قد ابتدأت بالنسبة لبعض كبريات مدن المشرق منذ القرن التاسع عشر. وكما هو الحال في مدن أواسط وجنوب الصين، كان ضيق الشوارع والأزقة حائلاً دون سير السيارات. وبسبب سهولة تلف مواد الميناء ـ الخشب في تركيا، الطين والطوب غير المحروق في العديد من أرجاء المشرق ـ كان من السهل الهدم وإعادة البناء على قواعد جديدة. فقد بنى الفرنسيون في شمال غرب افريقيا وبنت روسيا في طوران مدناً إدارية «حديثة» إلى جانب المدن القديمة، التي غالباً ما كانت تنفصل عن بعضها بحزام من المقابر

(١) L. Silberman, Somali nomads, vgl. Anm. 66, darin559-571.

(٢) W. Thesiger, Arabian Sands, London 1959; Die Brunnen der Wüste, München 1959.

(٣) L. Berque, L. Krader in: Nomads and Nomadism in the Arid Zone (vgl. Anm. 66, darin 481-510).

(٤) X. de Planhol, Le Monde Islamique, Essai de géographie religieuse, Paris, Presses Univ. 1957.

الإسلامية. فمدينة جدة حالياً لا تظهر الكثير من المدينة التي تحيطها الأسوار وبيوتها التي تزينها شرفات خشبية كما عرفتها أنا في العام ١٩٢٧[١]. بل إن مدينة صغيرة وهي مدينة «بريدة» داخل شبه الجزيرة العربية قد فقدت الآن خاصيتها القاتمة المظلمة التي كانت تمتاز بها. أما مدينة الظهران في شرق الجزيرة فهي مدينة مفصولة كلياً عن الأرض المحيطة بها، إنها مدينة شركات النفط الأميركية وقد بنيت على نمط غربي. ومع ذلك فقد كثرت فيها الساحات الخضراء الباهظة التكاليف وألحقت آلات التكييف بالمنازل. في حين أن صنعاء في اليمن ما زالت على حالها وسط أسوارها المبنية من الطين والطوب؛ ربما كان ذلك عائداً إلى عدم اقامة الإمام فيها. أما اعتماد البناء بواسطة مواد سريعة الزوال فذلك يعود إلى نزعة الإسلام الذي أخذ بالتوجه القائل بعدم الاهتمام بالكماليات من جهة وإلى نقص في الاعتزاز بما هو بلدي أو أهلي من جهة ثانية. وهكذا نجد في حضرموت أن مرحلة البناء بواسطة الحجارة، وهذا ما كان سائداً قبل العصور الإسلامية، قد استبدلت لاحقاً باستخدام الطوب غير المحروق مادة للبناء. أما النماذج الجميلة المصنوعة من الجفصين والتي تعتبر عملاً يومياً فهي نماذج بحكم المختفية في أيامنا هذه. أما نمط بناء الشوارع أو البيوت المكونة من طبقة واحدة فهي ترتبط في المشرق بالنظرة إلى الحياة، النظرة التي تجعل من الحياة حياة فردية خاصة، إنها إرادة العشيرة في الحياة لذاتها؟ أن تعيش لنفسها: ففي واحة الهفوف المعروفة بينابيعها في شرق الجزيرة العربية نجد أن لكل عشيرة بئر مائها الخاص بها. على النقيض من ذلك نجد البيوت العالية المبنيةمن حجارة وطوب في المرتفعات اليمنية حيث يلعب الاقتصاد الزراعي دوره، كذلك نجد شوارع لا تخلو من الزخارف[٢]. يبدو لنا الأمر كما لو كان تذكيراً باتساع اليمن السعيد كما جاء في وصف الهمداني له في كتابه الإكليل (القرن العاشر). أما كون البيوت مبنية من خشب يسهل حرقه كما في الشمال التركي أو من طين وطوب غير محروق كما في المناطق الجافة فأمر يسهل شكل البناء، وهذا ما يمكن أن نلحظه بسهولة في المثل الذي سقناه سابقاً عن بغداد. كذلك نشير إلى الحرائق التي عانت منها اسطنبول في ظل تسلط الجيش الانكشاري. فما بين العام ١٨٥٨ و١٨٦٥ شب ١٦٠ حريقاً ودمرت ٤١٤ منزلاً. وإذا بدت المدينة في المشرق غير منتظمة ضيقة الشوارع كثيرة

(١) C. Rathjens, H.V. Wißmann, Landshaftliche Beobachtungen im südlichen Hedjaz: Die Stadt Djidda. Erdkunde 1, 1947, 75 - 85.

(٢) C. Rathjens, H.v. Wißmann, Sanaa. Ztschr. Ges. Erdkunde zu Berlin 1929, 329-352; diesel- ben: Rathjens-v. Wißmannsche Südarabienreise Bd. 3, Landeskundliche Ergebnisse. Hamburg. Univ., Abh. a.d. Gebiet d. Auslandskunde Bd. 40, 1934.

المنعطفات، فذلك يعني أنها لم تُبنَ بناءً لتخطيط مسبق بل هي ظهرت وتوسعت عبر تاريخ مليء بالفوضى حيث قامت كل عشيرة أو كل وحدة حرفية، وكل جماعة مكونة من فئات متقاربة بالاقامة في حي منعزل خلف أبواب ضيقة مغلقة على الخارج. إن المدينة الإسلامية لم تكن مزوَّدةً اطلاقاً بأية تجهيزات جماعية. ففي هذا الاطار لا يمكننا أن نسوق مثل وجود موظفي الدولة أو دوائر الشرطة أو الذين يراقبون السوق. فإلى جانب سلطة الدولة نجد في المدينة سلطة السلطات الدينية. حتى اسطنبول لم تصبح مدينة تتمتع بسلطة مدينية إلا عام ١٨٥٥. ففي كل مكان نجد كما يقول كزافييه دي بلانول: «إن المدينة الإسلامية تعاني وبشكل فظيع من الوحدة الأساسية: إنها تجمّع من عناصر لا تنتمي إلى بعضها البعض، إنها عناصر تتجاور دون وحدة حقيقية». ومع ذلك فالمشرق غني بمدنه. وثمة فرائض وأعراف لا يمكن إقامتها إلّا في المدينة. والإسلام المتشدد مرتبطٌ في استمراره وسواده بالمدينة حيث يؤدَّلُ ويُمارسُ وينتشر. هكذا فإنّ المدينة الإسلامية ليست قلعةً أميريةً يقع قصره في جانبٍ منها إن المسجد الجامع الذي غالباً ما يكون في وسط المدينة محاط بعدد من المساجد الصغيرة المنتشرة في الأحياء السكنية. يعتبر عدد المساجد والمدارس ومراكز تدريس الأمور الفقهية أمراً تفتخر به المدينة. فالظاهر أن الصلاة لا تبلغ درجة الكمال إلّا إذا كانت صلاةَ جماعةٍ في بيتٍ من بيوت الله. بهذا المعنى يمكننا فهم نظرة المديني إلى البدو وعدم اعتبارهم مؤمنين صالحين. فالمسجد الجامع قد أخذ مكانة السوق والمحكمة في المدن القديمة. ثم دور الكنيسة فيما بعد. فإلى جانبه نجد عادة السوق مع ما فيه من محال للبضائع أو للأعمال الحرفية والمستودعات. كما نجد أحياناً الحمامات العامة. غالباً ما يكون السور محيطاً بالمدينة مع أبواب ضيقة وأبراج. أما يثرب فلم تكن مدينة مسورة زمن الرسول بل امتازت بوجود أبراج للحراسة تطل على الواحة. وفي تريم والهفوف في حضرموت امتد السور حتى خارج المدينة ليحيط بالواحة[١]، وكان لا يزال قائماً حتى العام ١٩٣١، ولكنه لم يعد موجوداً الآن. كان مخطط المدن التي تم انشاؤها منتظماً أول الأمر. فالمخطط المدور كان معروفاً في بغداد والبصرة والكوفة. أما في مصر وفي شمال افريقيا فقد كان المخطط يشبه مثلثاً قائم الزاوية وذلك تبعاً للنموذج القديم. أما الرباط التي بناها أمير المرابطين الثالث (وقد اشتقت اسمها من رباط مجاور) فقد امتازت بشوارعها المتوازية والمتقاطعة، فهي تتشابه بذلك مع الإسكندرية كنموذج لها. أما شبام في حضرموت والتي بناها أحد ملوك جنوب شبه

(١) Plan von Terim, Karte von H.v. Wißmann, in: D. van der Meulen, H.v. Wißmann, Hadramaut, Leiden 1932, Faltkarte.

الجزيرة لتكون عاصمة ملكه الجديد الذي افتتحه في الجانب الشرقي من حضرموت (حوالي العام ٣٠٠ ق.م) فكانت مدينة مربعة الشكل، وما بين البيوت العالية المبنية من طوب وطين «تغرق» الجوامع البيضاء المكونة من طابق واحد مع ما فيها من زخارف جميلة. أما شوارع اسطنبول فقد ظلت محافظة على نظام شوارعها المأخوذ من البيزنطيين، ولعدة قرون[١].

ثمة مشكلة كبيرة واجهت دول المشرق الإسلامية. إنها مسألة ملكية الأراضي الزراعية، خاصة ملكية الواحات. مسألة نظام الايجار مع ما يفرض من فوائد لا تحتمل، عدم اهتمام الملاكين المدينيين أو الوسطاء بين الدولة والفلاحين، نظام الوقف الخيري، وكل ما يصفه هـ. بوباك ضمن ما يعرف بالاقتصاد الريعي. كل ذلك يتطلب أكثر من حل. ففي الصين أدى عدم قيام إصلاح زراعي إبان الثورة الأخيرة مع ما حملت من «حلٍ شيوعي» كانت نتائجه من حيث تفكك العائلة أكثر قسوة مما حصل في الاتحاد السوفييتي إلى ازدياد الصعوبات. من المتطلبات القائمة تظل هنا مسألة أرض الواحات في المشرق. أما بالنسبة للأراضي الجبلية فالمشاكل المطروحة مختلفة إلى حدٍ ما عن المناطق التي يمكن زراعتها والتي قد تقع في أيدي البدو مما يوجب اعادة إحيائها، أو الواحات التي تستلزم اصلاحاً وجر أقنية الري ومدها بسكان من الفلاحين المختصين ـ ما عدا مصر حيث تعتبر الكثافة السكانية كافية ـ. وإلى جانب ذلك نشير إلى العلاقات السيئة التي تبرز في المناطق والهضاب الجبلية. وفي زمن الحروب وقيام الفوضى في المساحات المفتوحة استطاع العديد من سكان الجبال الفلاحين الدفاع عن أنفسهم ومتابعة حياتهم وإن كانت معزولة إلى حد ما (يمكننا هنا فتح باب المقارنة مع بعض المناطق في جبال الألب، لا سيما الأودية الجبلية)، حيث كان بالإمكان تجليل المرتفعات وتوزيع وتخزين المياه من مصادرها أو مياه الأمطار وتأمين العمل بشكل جيد. تبدو هذه الخطوات إذا ما أدخلت في اطار «اقتصاد عالميٍ» خطوات غير مجدية من جانب مردوديتها[٢]. فمن غير المحتمل أن نجد هنا إنتاجاً يتمتع بقيمة جد عالية بحيث تضمن اصلاحها وبحيث يستحق هذا الإصلاح الجهد المبذول من أجله. نشير في هذا الاطار إلى ما أصاب زراعة القهوة في اليمن في القرن الثامن عشر. فاليمن ما زال كما في القرون

(١) من الدراسات الجديدة: H. Bobek, Zur Problematik eines unterentwickelten Landes alter Kultur: Iran. Orient (Hamburg) 2, 1961, 64-68, 115-124, 146.

(٢) قابل الآن: H. Bobek, Die spezifische Stellung und Leistung des Abendlandes. Wissenschaft und Weltbild (Wien) 1960, 169-178.

الوسطى، بلداً محافظاً على فقره. لكن هذه الإمكانية تبدو في مكانها بالنسبة لاستصلاح الأراضي الواقعة على السدود، لا سيما في الجهات الغربية من المنحدرات الجبلية حيث تكثر الفيضانات وحيث لا يعدم وجود النفط وحيث تبذل الجهود بنجاح لبناء ميناء الحديدة وحيث نجد قيام حركة تصنيع. هكذا نجد تمايزاً في المشاكل الزراعية بين ما نشهده في الواحات، وما نشهده في المناطق الجبلية بما فيها من فلاحين ومن قرى وبروج يسكنها المزارعون.